ميخائيل غورباتشوف

غورباتشوف
وحكاية الانقلاب
ثلاثة أيام هزّت العالم

ترجمة
فؤاد حطيط

دار عام ألفين
باريس

غورباتشوف
وحكاية الانقلاب
ثلاثة ايام هزّت العالم

الطبعة الأولى 1992

رايسا

في [illegible] الأيام الأربعة للانقلاب الروسي، في آب/أغسطس ١٩٩١، كان في دارة غورباتشوف مراقب متنبّه وخبير: إنه المستشار [illegible] الخاص، أناتولي شيمياييف. فقد كان إلى جانب غورباتشوف وزوجته رايسا، كل الوقت تقريباً. يروي: «أنه كتب يومياً مجرى الاحداث بينما كان سجيناً مع الرئيس، وزوجته؛ وانه اخفى هذه اليوميات تحت سجادة غرفته».

وإن رواية أناتولي شيميابييف التي ننشرها في صفحة 113 من هذا الكتاب مفعمة بالانفعال والطرائف الظريفة المبتكرة. ومن خلالها نفهم بشكل خاص ماهيّة الدور الشجاع الذي قامت به رايسا في أثناء تلك الايام القلقة.

لانقاذ زوجها غورباتشوف

بقلم أناتولي شيميابييف

غورباتشوف يكتب إلى القارىء

الأحداث التي شهدها الاتحاد السوڤياتي ، في آب/ أغسطس 1991 ، ما تزال تستحوذ على اهتمام واسع في بلدي وفي العالم عموماً . محاولات جادة جرت لتحليل أسباب وتبعات ما حصل . ولسوء الحظ فإن محاولات من نوع آخر جرت أيضاً ، كان هدفها تحويل هذه الأحـداث إلى موضـوع لتخمينٍ سطحي لإثارة مشاعر تافهة ومواقف ضارة . بصرف النظر عن حقيقة نوايا أولئك الذين قاموا بهذا التحليل ، فإنهم أضروا بمسيرة تعزيز لحمة مجتمعنا وبالسعي لبلوغ اتفاق سياسي بشأن ما هو الآن ضرورة حيوية لبلدنا .

أنا أيضاً ، بالتأكيد ، دائم التفكير بشأن ما حصـل . وقد أدليت بـالفعل بتصريحات عدة أمام الرأي العام ، وقلت الشيء الكثيـر في حوارات أجـريتها خلال الأسابيع القليلة الماضية . الآن أصبحت قادراً على ربط كل الأحداث مع بعض ، وأود أن أقـدم للقراء تقييمي لمـا حصل. المـزيد من التحليـل،حقائق جديدة ، مسار الأحداث نفسها ، وبالتأكيد التحقيق مـع المتهمين بالخيـانة ، ستوفر مادة لفهم أكثر شمولية للظروف بما يسمح بالوصـول إلى الاستنتاجـات الصحيحـة . على أي حال ، أنـا مقتنع بـأن الآراء التي أقدمهـا هنا لن تتـأثـر بشكل جوهري .

Президент СССР
М. Горбачев

أيلول/ سبتمبر 1991

ميخائيـل غورباتشـوف

إنقلاب آب / أغسطس
أشبه بالمفاجأة المذهلة؟

احتمال وقوع انقلاب باستخدام القوة ، وإشاعات عن أن التحضيرات لهذا الانقلاب تجري على قدم وساق ، كانت تنتشر في أوساط المجتمع السوفياتي منذ عدة شهور . وبالنتيجة أنه عندما وقع الانقلاب فعلاً لم يكن حدثاً غير متوقع ، حدثاً أشبه بالمفاجأة المذهلة . في ردي على السؤال الصريح الذي وجّه إليّ أكثر من مرة ، قلت دائماً إن الانقلاب في الوضع الراهن مستحيل ، وإنه محكوم بالفشل ، وإن الرجال المجانين فقط يمكن أن يقدموا على ذلك . عندما كنت أقول ذلك، لم أكن أرغب في التقليل من خطر الهستيريا التي كان يثيرها اليمينيون عبر الصحافة وفي اجتماعات اللجنة المركزية ، والخطابات الاستفزازية لجنرالات معينين ، وتخريب العديد من قرارات البيريسترويكا من قبل الحزب والآلة الحكومية على كافة المستويات .

بنظرة سريعة لاستعادة أحداث 19 ـ 21 آب/ أغسطس والتأمل فيها ، عليّ القول إن منطق الإصلاحات العميقة لم يستبعد انعطافاً كهذا للأحداث . لقد أدركت أن الأحداث قد تأخذ أشكالاً دراماتيكية جداً . ما هو الأساس الذي استندت عليه هذه الفرضية ؟ التغييرات الأساسية كانت قد أثّرت على كل النظام الاجتماعي ، وعلى المصالح المتجذرة عميقاً لكل قطاعات المجتمع .

قبل كل شيء كنت منتبهاً إلى الحزب ، الذي كان يحكم باسم الشعب ، دون أن يكون مفوضاً بذلك من الشعب نفسه . التغييرات أثّرت على الجيش ، الذي وجد نفسه خاضعاً لسلسلة إصلاحات بعيدة الأثر ، كنتيجة لسياسة « التفكير

الجديد » ، والتقدم في مجال نزع الأسلحة القبول بمبدأ الدفاع الكافي . عملية تحويل مجمّع الصناعات العسكرية إلى غايات مدنية كانت قد أصبحت واقعاً . إنها تتقدم بصعوبة ومترافقة مع تبعات سلبية كثيرة . فالذين يعملون في ذاك القطاع من الاقتصادي يشكلون الشريحة الأفضل تنظيماً ، الأعلى علماً والأكثر خبرة في المجتمع ، والتي تتمتع بامتيازات معينة .

والآن أضف إلى ذلك المظاهر الإثنية لمسيرة البيريسترويكا ، إصلاح القوانين المتعلقة بالملكية بهدف تغيير الحوافز للعمل ، والانتقال إلى اقتصاد السوق . وغيرها الكثير ، الكثير جداً . كل الأمور برزت معاً في وقت واحد .

كان البلد قد انزلق في أزمة شاملة . المنطق الحقيقي لتطور مجتمع أملت الحاجة لتغييرات عميقة بالطريقة التي سببت بروز كمّ هائل من التناقضات . انهيار النظام القديم ولّد عدم استقرار وتشوشاً كاملاً . لم يكن ممكناً ، بأي شكل ، أن تتحقق الإصلاحات بسهولة في بلد ضخم كهذا ، كان على مدى عقود دولة توتاليتارية مع احتكار السلطة والسيطرة الكاملة للدولة على الملكية . مسيرة الاصلاح بدت مؤلمة جداً وكان لها تأثير جدي على حياة الناس .

في ذلك الوضع شرع المتآمرون بمحاولة لإعادة البلد إلى التوتاليتارية . لكن الوضع نفسه كان أيضاً نتيجة للأسلوب البطيء وغير المنسجم الذي استخدمناه لممارسة سياساتنا ، خصوصاً بما يتعلق بإصلاح الآلة الحكومية السابقة . لم يغب عن بالي التأخير في إنهاء احتكار الحزب للسلطة والبنية البيروقراطية للحزب ، التي كانت في وجوه عديدة من مخلفات النظام القديم ، والتساهل غير المبرر مع الأشخاص الذين لم يقبلوا البيريسترويكا وظلوا محتفظين بولائهم للستالينية ، ولكل شيء مرتبط بها ، أو في أحسن الأحوال كانوا يدافعون عن مرحلة ما بعد الستالينية . وفي المؤتمر الثامن والعشرين للحزب ، وفي الجلسات اللاحقة للجنة مركزية ، كانت هناك معركة مرهقة بين مؤيدي الإصلاحات الديمقراطية وبين الذين يجاهدون بكل السبل لعرقلتها . والشيء نفسه كان يحصل في اللجان الحزبية المحلية . صحيح أن النظام القديم كان قد تزعزع وفقد تماسكه ، لكنه كان ما يزال قادراً على استخدام ما تبقى لديه في محاولة لإعاقة الحركة إلى الأمام .

ما حدث في وقت وقوع محاولة الانقلاب ـ المواجهة الحاسمة بين قوى الرجعية والديمقراطية ـ كان لا بد حصوله بشكل أو بآخر . وكان مؤشراً على انحلال عقدة التناقضات ، التي كانت قد تراكمت .

كثيرون يقولون الآن : هل توقع غورباتشوف بالفعل أن يحدث ذلك ؟ بالتأكيد كنت أدرك الإمكانية النظرية لحدوث صراع حاد بين قوى التجديد والرجعية . ولم أكن وحدي أدرك ذلك . لكن ما الذي يُستخلص من ذلك ؟

منذ بداية الأزمة التي نشأت بفعل التحويل الجذري لمجتمعنا ، حاولت منع التناقضات من بلوغ حد الانفجار . أردت كسب الوقت بالقيام بخطوات تكتيكية ، بحيث أتيح للعملية الديمقراطية فرصة امتلاك رسوخ كاف لإزاحة الأساليب القديمة ، ولتقوية ارتباط الناس بالقيم الجديدة . باختصار ، أردت إيصال البلد إلى مرحلة تصبح معها أية محاولة للإمساك بالسلطة محكومة بالفشل . كان هدفي الأساسي ، برغم كل الصعوبات ، متابعة مسيرة الإصلاح ، مع عدم الخروج عن الضوابط الدستورية والقانونية ، مهما كان ذلك مؤلماً .

في سياق السنة ونصف السنة الماضية ، كانت المواجهة بين قوى التقدم والرجعية تشتد . ومنذ كانون الأول/ ديسمبر أو حتى منذ خريف السنة الماضية اتخذت أشكالاً حادة جداً . حتى أن بعض الأشخاص لم يحاولوا تمويه حقيقة مواقفهم . وارتفعت نداءات متكررة لفرض إجراءات الطوارىء ، وتحولت جلسات اللجنة المركزية إلى معارك حقيقية . ينطبق ذلك على جلسة نيسان/ إبريل 1991 ، التي صدمت الرأي العام . وينطبق أيضاً على الجلسة الأخيرة عشية إعلان 32 سكرتيراً من بين 72 سكرتيراً للجان الحزب الإقليمية في اتحاد منظمات روسيا ، عن وجوب محاسبة غورباتشوف .

أستعيد الحوارات التي أجريتها مع فيليبي غوانزاليس ، هذا الصيف في موسكو . قلت حينها ، وقد وافقني على ذلك ، إن مواجهة حادة للغاية تجري في مجتمعنا ، بين البنى السياسية والاجتماعية القديمة وبين المجتمع نفسه ، الذي كان قد خضع بالفعل لعملية تغيير عميق . هذه البنى كانت هالكة ويجب إبدالها . كانت رغبتي الدائمة أن أنجز ذلك بطريقة ديمقراطية وبدون إراقة دماء .

ولو مرة واحدة في تاريخ بلدنا نستطيع تجنب إراقة الدماء في مرحلة تغيير ثوري .

وبعد كل شيء ، كيف كان ممكنا للذين بدأوا البيريسترويكا أن يتصرفوا غير ذلك ؟ ولو تصرفوا بطريقة مختلفة فأي ديمقراطيين سيكونون ؟ وكما تصرفنا على الساحة العالمية أيضاً ، بقينا ثابتين على نهج استبعاد حل المشاكل باستخدام القوة . سعينا لتفادي حدوث أيه محاولة انقلاب رجعي .

في حوار أجريته في 11 أيلول/ سبتمبر مع وزير الخارجية الأميركية ، جايمس بايكر ، سمعته يقول : « خلال الأيام القليلة الماضية ، أمعنّا جورج بوش وأنا التفكير مليّاً ، سيدي الرئيس ، في سياستك ، وفهمنا الآن نهجك في المناورة والمساومة . أردتَ كسب الوقت بحيث لا تترك فرصة للقوى المحافظة لتحطيم سياسة الإصلاح » .

أجل ، هكذا كان الأمر فعلياً . سياسة المساومة كانت ضرورية لتخفيف التوتر في لحظات الخطر الجدي ، مثلما كان الوضع في أيلول/ سبتمبر وكانون الأول/ ديسمبر 1990 ، ومرة أخرى في ربيع 1991 ، عندما ارتفع نداء : « ليسقط الأمين العام ! ليسقط الرئيس ! » . ويجب أن أذكر أن هذا النداء صدر من اتجاهات مختلفة . كان علينا أن نبلغ طريقة للعمل تهدف لتوفير مناخات تعزيز الإصلاحات ، بحيث يصبح المواطن قادراً على فهمها بشمولية ومستعداً للدفاع عنها . في مثل هذا الوضع المتوتر تحديداً اجتمع رئيس الاتحاد السوڤياتي وزعماء تسع جمهوريات في نوفو- أوغاريڤو ، وأصدروا البيان المشترك ، المعروف جيداً الآن ، الذي لعب دوراً لا غنى عنه . عملية نوڤو- أوغاريڤو أوصلت المجتمع إلى فهم جديد لحاجة البلد إلى توافق . أكرر : على مدى هذه السنوات كان هدفي حفظ وصيانة المسار السياسي للبيريسترويكا . لهذا اعتبرت أن من الضروري التحرك إلى الأمام بسرعة أكبر لوضع معاهدة للاتحاد ، ولتنفيذ التحولات الاقتصادية الجذرية ، ولإعادة تنظيم الحزب .

كانت مسودة المعاهدة جاهزة للتوقيع . في 20 آب/ أغسطس في قاعة سان جورج ، في الكرملين ، كان مقرراً أن تقوم وفود من ست جمهوريات بالتوقيع عليها . وبصفتي رئيساً للبلد كان مقرراً أن ألقي خطاباً .

كنت قد دعوت مجلس الاتحاد للانعقاد في 21 آب/ أغسطس لمناقشة خطة لتسريع الإصلاحات ومشاكل إمدادات الأغذية ، الوقود ، الاستقرار المالي .

باختصار ، كان علينا القيام بإنجاز ديمقراطي عميق وحاسم في الاتجاهات الرئيسية للمسيرة الإصلاحية ، لبلوغ مستوى جديد حيث لا يعود هناك مجال لأشخاص لا يريدون أو أنهم غير قادرين على التخلي عن أسلوب التفكير والعمل لنظام القيادة المركزية القديم . المتآمرون رأوا أن الوقت بدأ ينفذ منهم بسرعة ، ولذا اختاروا تلك اللحظة لتنفيذ خططهم . كانت محاولة الانقلاب ردّاً على عملية نوفو ـ أوغاريفو ولنتيجتها الأكثر أهمية ـ المعاهدة الجديدة حول اتحاد الجمهوريات ذات السيادة .

ثلاثة أيام في معسكر فوروس

مررناً بمحنة صعبة جداً . أخطر ما في المحاولة الإنقلابية هي حقيقة كون مدبريها في مركز الزعامة ، بالقرب من الرئيس . أسوأ ما عانيته على المستوى الشخصي كان الخيانة . وسيسكنني ذلك حتى آخر حياتي .

آلية الإنقلاب كانت قد وضعت في موسكو . ومن الواضح أن كل شيء كان محضراً سلفاً .

بعد الغداء في 18 آب/ أغسطس في معسكر فوروس في كريميا ، حيث كنت في إجازة ، تابعت العمل على مضمون الخطاب الذي كان مقرراً أن ألقيه خلال توقيع معاهدة الاتحاد . كنت أنوي العودة إلى موسكو في 19 آب/ أغسطس . في اليوم السابق كنت قد تكلمت مع رئيسي روسيا وكازاخستان ، يلتسين ونازارباييف ، بشأن التوقيع الوشيك على المعاهدة ، وجلسة مجلس الاتحاد . حوالي منتصف نهار 18 آب/ أغسطس تحدثت مع نائب الرئيس يانايف . بشكل عرضي شكرني حينها على إعلامه عن موعد وصولي إلى موسكو ووعد أنه سيكون بانتظاري لحظة وصولي . لاحقاً تكلمت مع فيليشكو (نائب رئيس الوزراء) ، فولسكي (رئيس الرابطة الصناعية ـ العلمية) وغيورينكو (السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأوكراني) . ديمينيتي (رئيس السوفيات الأعلى في بيبلوروسيا)لم يرد على اتصالي ـكان في مكانٍ ما . وعند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، ناقشت خطابي الذي سألقيه قريباً مع مساعدي شاخنازاروف ، على التلفون . الآن أصبحنا نعرف أنه في 19 آب/

أغسطس أعلن أني لست قادراً على القيام بمهامي . من بين الذين تكلمت معهم في 18 آب/ أغسطس اثنان فقط دحضا ما زعمه المتآمرون بخصوص مرضي ، حتى أنهما لم يفعلا ذلك فوراً بعد يوم أو يومين .

في الساعة الخامسة إلاّ عشر دقائق ، بعد ظهر 18 آب/ أغسطس أعلمني المسؤول عن حراستي الشخصية أن مجموعة أشخاص وصلوا وطلبوا رؤيتي . لم أكن أتوقع وصول أحد ، لم أكن قد دعوت أحداً ، ولم يعلمني أحد بأن أحداً قد يأتي إليّ . مسؤول الحرس قال إنه أيضاً لا يعرف شيئاً عن الأمر . « إذن لماذا سمحت لهم بالدخول » سألته . « بليخانوف وصل معهم » أجابني . (كان بليخانوف رئيساً للدائرة المسؤولة عن الحماية الشخصية في لجنة أمن الرئاسة) . لولا ذلك لما سمح لهم الحراس بالاقتراب من الرئيس . هذه هي الأصول ، صارمة ولكن ضرورية .

رغبتي الأولى كانت معرفة من أرسل هؤلاء إليّ . كنت منهمكاً بالعمل في مكتبي في ذلك الوقت . وبما أن نظام الاتصالات الشامل كان معي ـ الخط الحكومي ، الخط العادي ، وخطوط الاتصالات الاستراتيجية وعبر الأقمار الاصطناعية ـ أمسكت بسماعة أحد هذه التلفونات ، لأجد الخط مقطوعاً . أمسكت بسماعة ثانية ثم ثالثة ، خامسة وسادسة ، وكانت كل الخطوط مقطوعة . ثم التقطت سماعة التلفون الداخلي فكان مقطوعاً أيضاً . مع أنه قبل عشرين دقيقة كان نظام الاتصالات يعمل . الظاهر أن المتآمرين قرروا سلفاً أنهم لن ينجحوا في التفاهم معي فأخذوا الاحتياطات اللازمة لإبقائي معزولاً .

أدركت أنه بالنسبة لي لن تكون هذه المهمة من النوع الذي اعتدت التعامل معه . أول شيء قمت به هو إخبار زوجتي وابنتي وصهري بما حدث . كان واضحاً لي أن الأمر في غاية الجدية لم أستبعد أية محاولة للابتزاز أو الاعتقال أو أي شيء آخر . في الحقيقة ، كان كل شيء وارداً . « يجب أن تعرفوا » قلت لرايسا ماكسيموفا ، وإيرينا وأناتولي . « إني لن أخضع لأي نوع من الابتزاز أو لأي تهديد أو ضغط ، ولن أتراجع عن المواقف التي كنت اتخذتها » .

لكن المرء لا يستطيع استبعاد إمكانية أن يؤدي ذلك إلى إجراءات في غاية

القسوة ، ليس بحقي فقط بل أيضاً بحق أفراد عائلتي .

العائلة كلها وافقت أن الأمر لي للتقرير ، وأنهـا مستعدة لمشاركتي حتى النهاية مهما كان بانتظارنا . كانت تلك خلاصة التشاور مع العائلة .

ذهبت لدعوة الزوار ، لكنهم كانوا قد حضروا إلى مكتبي بالفعل بدون أن يأذن لهم أحد ـ قلة احترام غير معهود . كانت المجموعة تتألف من بولدين ، المسؤول عن طـاقم موظفي الـرئاسـة ، شينين ، عضو في المكتب السيـاسي وسكرتير للجنـة المركزية ، باكلانوف ، نائبي في مجلس الدفاع وسكرتير سابق للجنة المركزية . الرجل الرابع معهم كان فارينكوف ، جنرال في الجيش وهو شخص كان منعزلاً جداً عني ، لكنه مع ذلك كان الرجل الذي سافر إلى أوكرانيا ووجه إنذاراً إلى كرافشوك ، رئيس السوفيات الأعلى لأوكرانيا . بليخانوف كان أيضاً معهم ، لكني أمرته بمغادرة مكتبي .

لحظة بدء هذا اللقاء وجهت السؤال : « قبل متابعة حديثنا أريد أن أسألكم من الذي أرسلكم » وكان الرد : « اللجنة » .

« أي لجنة ؟ » .

« حسناً ، اللجنة التي شُكلت لتولي الوضع الطارىء في البلد ؟ » .

« من شكلهـا ؟ لم أشكلها أنـا ولم يشكلهـا الـسـوفيـات الأعلى . فمن شكلها إذن ؟ » .

ما كان على الزوار قوله هو أن الأشخاص قد التقوا مع بعض فعلياً ، وهم الآن بحاجة إلى مرسوم من الرئيس . وضعوا الأمر أمامي على هذا الشكل :إمـا أن تُصدر المرسوم وتبقى هنا أو تقوم بنقل صلاحياتك إلى نائب الرئيس . قال باكلانوف إن يلتسين قد اعتُقل . ثم صحح كلامه : بأنه سيُعتقل على أي حال .

« ما هي مقتضيات تقديم الأمر على هذا الشكل ؟ » .

« إنه وضع البلد ، إنه متجه نحو كارثة ، خطوات يجب اتخاذها ، هناك حاجة لإعلان حالة الطوارىء ، أية إجراءات أخرى لن تنقذنا ، يجب أن لا نترك

أنفسنا مخدوعين بعد الآن . . . » وأشياء من هذا القبيل .

رددت بالقول إني لست أقل منهم إدراكاً للوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم في البلد ، وأحوال الناس ، كيف يعيشون والأعباء الثقيلة التي يتحملونها . وإن هناك حاجة للقيام بسرعة بما هو ضروري لتحسين مستوى المعيشة . لكني كنت خصماً عنيداً ـ ليس فقط لأسباب سياسية وأخلاقية ـ لطرق حل المشاكل التي أدت في الماضي إلى موت المئات ، الآلاف ، والملايين من الناس . علينا نبذ هذا الأسلوب نهائياً، وإلا فإننا نخون وندفن كل ما بدأنا عمله لنرسي من جديد درباً دموياً آخر . إذا كانت لديهم وجهة نظر أخرى ، قلت ، فلنرفع هذه الأسئلة في السوفيات الأعلى ، وأن نناقشها في مؤتمر نواب الشعب لإيجاد حلول لها . كان موقفي معروفاً جيداً من قبلهم . كنت قد قلته في السوفيات الأعلى ، وكافحت لأجله في اجتماعات اللجنة المركزية والمكتب السياسي . لقد رفضت إنذارهم .

خلال السنوات الأخيرة ، نجحت أكثر من مرة في الحؤول دون حصول انعطاف خطير للأحداث . وهذه المرة ظننت أيضاً أن هؤلاء الأشخاص قد يفهمون ويغيرون رأيهم . لذا قلت : « أنتم والذين أرسلوكم لا مسؤولون . سوف تدمرون أنفسكم ، لكن هذا شأنكم فاذهبوا إلى الجحيم . لكنكم أيضاً سوف تدمرون البلد وكل ما فعلناه . قولوا ذلك للجنة التي أرسلتكم » .

« نحن الآن على وشك التوقيع على معاهدة الاتفاق . وهناك قرارات هامة ، حضّرناها مع الجمهوريات ، تتعلق بإمدادات الأغذية والوقود والمشاكل المالية ، بهدف إعادة الإستقرار للوضع السياسي والاقتصادي بأسرع ما يمكن ، ولتسريع عملية الانتقال إلى اقتصاد السوق وإعطاء الناس فرصاً أكبر للتطور في كافة المجالات . كنا على طريق الوصول إلى اتفاق . بالطبع ، لم نصل إلى اتفاق كاف بعد : ما زال الشك موجوداً عند الطرفين . ما زال موجوداً في العلاقات بين الجمهوريات والمركز وفي العلاقات بين الحركات السياسية والاجتماعية . لكن السبيل الوحيد هو السعي إلى اتفاق . وقد ظهر وبدأنا نسير إلى الأمام . وحدهم الذين ينزعون إلى الانتحار يمكن أن يقترحوا الآن فرض حالة الطوارىء في البلد . لن يكون لي شأن بذلك » .

كانت تلك هي اللحظة التي قال فارينكوف بلهجة آمرة : « سلم استقالتك » رفضت هذا الطلب الوقح ، قائلاً : « لن تحصلوا مني على أي من الأمرين ، قولوا ذلك للذين أرسلوكم إلى هنا » .

« هناك بالفعل إمكانية الاجتماع مع العديد من قادة الجمهوريات والبحث معهم في هذه الأسئلة . في 20 آب/ أغسطس سنوقع على معاهدة الاتحاد الجديدة . في 21 آب/ أغسطس ستكون هناك جلسة لمجلس الاتحاد . سوف نناقش أموراً لم نستطع التوافق عليها في مجلس الوزراء . علينا اتخاذ بعض القرارات . لكن ليس بالطريقة التي تريدون القيام بها » .

« إذن ، غداً ستعلنون حالة الطوارىء . ماذا بعد ؟ هل يمكنكم التخطيط على الأقل ليوم واحد بعد ذلك ، لأربع خطوات إلى الأمام . . . ماذا بعد ؟ البلد سيرفض هذه الإجراءات والمواطنون لن يدعموها . تريدون استغلال الصعوبات ، حقيقة إن الناس متعبون ، وتظنون أنهم مستعدون بالفعل لتأييد أي ديكتاتور » .

بالصدفة ، خلال الأيام السابقة كنت بالفعل أعمل مع مساعدي تشيرنياييف على بند رئيسي ، يتناول الوضع في البلد واحتمالات تطوره . أحد السيناريوهات الجدية التي أخذناها بعين الاعتبار كان فرض حالة الطوارىء . والآن ظهرت ملامحه هنا . كان استنتاجي بأن هذا السيناريو قد يؤدي إلى كارثة على مجتمعنا وأن أفقه مسدود، وسيعيد البلد إلى الوراء ويدفن كل ما لدينا الآن .

« أقترح الدعوة لانعقاد السوفيات الأعلى والمؤتمر ، وحل كل شيء هناك . أنتم قلقون حيال الوضع الراهن ؟ كذلك نحن أيضاً . ترون أن هناك حاجة لإجراءات عاجلة ، وأنا مع الرأي نفسه . لذا فلنلتقِ معاً ونتخذ بعض القرارات . إنني مستعد للموافقة على إلتئام مؤتمر نواب الشعب والسوفيات الأعلى بما أن لدى بعض قادة البلد شكوكاً . فلنلتقِ معاً ، ولنناقش المسائل . النواب يعرفون ما الذي يجري في مناطقهم . فلنتخذ خطوات . سوف أدافع عن ثلاثة اتجاهات رئيسية في السياسة : اتجاه السعي لبلوغ اتفاق ، توسيع الإصلاحات ، والتعاون مع الغرب . خصوصاً وأن الدول الأخرى ترغب بالفعل

بالتعاون معنا في هذه المرحلة المصيرية » .

لكن كان الأمر أشبه بمن يتكلم مع أناس بُكم وصُم . كانت الماكينة قد دارت وأصبح ذلك واضحاً الآن . قلت : « هذا هو الأمر ، إذن . لا يمكن أن يكون هناك كلام آخر . بلغوا من أرسلكم أني أعارض بشكل مطلق مخططاتكم ، وأنكم ستُهزمون . لكني خائف على شعبنا وعلى ما حققناه في السنوات الأخيرة » .

الشخص الذي كان سلوكه أكثر خشونة بين المجموعة ، هو الجنرال فارينكوف . عند نقطة ما قلت له : « لا أتذكر اسمك (كنت أذكره بالطبع !) أوه ، أجل ، فالنتين ايفانوفيتش ، أليس كذلك ؟ إذن اسمع وحسب ، فالنتين ايفانوفيتش ، الناس ليسوا كتيبة جنود يمكنك إصدار أوامر لهم « إلى اليمين » أو «إلى الشمال، تحرّك» وسيفعلون تماماً ما تأمرهم به . لن يكون الأمر هكذا . سجل كلماتي » . وفي ختام الحديث ، وباستخدام اللغة الأقوى التي يستخدمها الروس في ظروف كهذه ، قلت لهم إلى أين يذهبون . وكان ذلك نهاية اللقاء .

خلال الحوار كررت عدة مرات : « فكروا ثانية ـ هذا الأمر سيؤدي إلى حرب أهلية وإلى الكثير من إراقة الدماء . سيكون عليكم تحمل النتائج . أنتم مغامرون ومجرمون . ومع ذلك لن يتحقق شيء من مخططاتكم ، ما عاد الناس مستعدين بعد الآن لتحمل ديكتاتوريتكم ، أو لخسارة كل ما ربحناه خلال السنوات الأخيرة » .

لحظة تبلغوا رفضي المطلق لإنذارهم سار كل شيء حسب منطق النزاع . عزلني المتآمرون كلياً عن العالم الخارجي ، بحراً وبراً ، خالقين ما كان بالضرورة ضغطاً نفسياً . كنت معزولاً كلياً . لاحقاً في موسكو ، علمت أن وحدة حدودية ومجموعة سفن لحماية الحدود وُضعت تحت القيادة المباشرة لبليخانوف وجنرالوف (نائبه) لهذه الغاية . بقي معي أفراد حمايتي الشخصية البالغ عددهم 32 رجلاً . وسرعان ما عرفت موقفهم ، كانوا قد قرروا الوقوف بثبات لحمايتي حتى النهاية ، وقاموا بتقسيم المكان بمجمله إلى مناطق توزعوا المسؤوليات عنها .

لم يكن صعباً التنبؤ بمنطق ما سيقوم به المتآمرون لاحقاً : على أساس « كذبة » سيضعون أيديهم على السلطة لاستخدامها للتسبب بنهاياتهم الخاصة . تأكيداً على ذلك ، كان المؤتمر الصحفي الذي نظمته في 19 آب/ أغسطس ما يُسمى بلجنة الدولة للطوارىء . لقد أعلنوا ، استناداً على حالتي الصحية ، أني غير قادر على القيام بمهامي كرئيس . أكثر من ذلك ، وعدوا بتقديم شهادة طبية في المستقبل القريب . وقد استنتجت أنه في حال عدم تلاؤم الحقائق مع ما أعلنوه ، أي إذا كان وضع الرئيس يختلف عما قالوه ، فإنهم سيلجأون لاستخدام ما بوسعهم لهز وضعه بحيث يصبح فعلياً محطماً جسدياً ونفسياً .

الرفاق في قوة حمايتي الشخصية فهموا ذلك أيضاً . فكان اتفاق على وجوب عدم قبول الطعام الذي يُحضر كل يوم من الخارج ، والاستعانة بما لدينا من مؤن وبما كان يُقدم في غرفة طعام الحراس . كان علينا زيادة الحذر في كل المجالات .

ما ترك أكبر تأثير عليّ ، واعتقد على الآخرين ، لم يكن ما قاله المتآمرون في المؤتمر الصحفي بل كان ظهورهم المثير للشفقة . بقيت رابط الجأش كلياً ، مع أني كنت مصدوماً في أعماقي وغاضباً مما يعانيه هؤلاء الأفراد من عمى سياسي ومن نقص قاتل في حس المسؤولية . كنت واثقاً ، مقتنعاً تماماً بأن المسألة لن تستمر طويلاً وأنهم لم ينجوا بفعلتهم .

بعد ظهر 19 آب/ أغسطس رفعت طلباً لإعادة الاتصالات فوراً ولتأمين طائرة لتقلني إلى موسكو . لم يكن هناك رد .

على أثر المؤتمر الصحفي قررت أن أسجل شريط ڤيديو عني ، قمنا بأربعة تسجيلات ، وقام الأولاد ، إيرينا وأناتولي ، بتقطيع الفيلم إلى أربعة أجزاء ، وبدأنا البحث عن أقنية يمكن الاعتماد عليها لإرسال الأفلام بطريقة ما إلى الخارج . كتب طبيبي عدة نسخ عن رأيه ، بحيث يمكن لأي شخص أن يعرف الحالة الحقيقية لصحة الرئيس . وأمليت على تشيرنيايف النقاط الأربع التي تؤلف مطالبي . بعد أن تم طبعها زدت الجملة الافتتاحية بخط يدي ووضعت توقيعي ، ليكون واضحاً أنها قد كُتبت من قبلي شخصياً . وهذا هو المحتوى :

ألفت نظر مؤتمر نواب الشعب ومجلس السوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الإشتراكية ، إلى ما يلي :

إعلان

1 ـ إدعاء يانايف تولي مهام الرئيس بحجة أني مريض وغير قادر على القيام بمسؤولياتي ، هو محاولة لخداع الشعب ، ولذا لا يمكن وصفها بأي شيء غير الانقلاب .

2 ـ هذا يعني أن كل الأعمال اللاحقة هي أيضاً غير شرعية وغير قانونية . لا أنا ولا مؤتمر نواب الشعب منحنا يانايف هذه الصلاحية .

3 ـ الرجاء إبلاغ الرفيق لوكيانوف طلبي لعقد اجتماع طارىء للسوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ومؤتمر نواب الشعب لبحث الوضع الذي استجد .

لأنهم ، هم وحدهم ، ونظراً للوضع القائم ، لهم حق تقرير طبيعة الإجراءات الواجب اتخاذها من قبل الحكومة ، ووسائل تنفيذها عملياً .

4 ـ أطلب التعليق الفوري لنشاط لجنة الدولة للطوارىء إلى حين اتخاذ القرارات الواردة أعلاه ، من قبل السوفيات الأعلى أو مؤتمر نواب الشعب لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية .

إن استمرار هذه الأعمال وتصعيد الإجراءات المتخذة من قبل لجنة الدولة للطوارىء ، سيؤديان إلى حدوث مأساة على كل الشعب ، وتفاقم الوضع وحتى التحطيم الكلي للعمل المشترك الذي بدأه المركز والجمهوريات لإيجاد سبيل للخروج من الأزمة .

الكريميا
1991/8/20

رئيس اتحاد الجمهوريات السوفياتية الإشتراكية
م . غورباتشوف

وطلبت رداً . هذه المرة قالوا لي أن أنتظر ، وأنه سيكون هناك رد . لكن

شيئاً لم يرد . ذاك هو الوضع الذي كان قائماً .

كـل يوم ، صبـاحاً ومسـاءً ، كنت أضع وأرفـع مطالبي بضرورة إعـادة الاتصالات وإرسال طائرة فوراً لأستطيع العودة إلى موسكو وإلى مقر عملي . بعد المؤتمر الصحفي الذي عقده يانابيف وشركاؤه ، زدت على هذه المطالب طلباً بـوجوب نشـر نفي لما ورد في المؤتمـر والإقرار بـزيف التقريـر بوضـع حالتي الصحية ـ تقرير أصدره مثل هؤلاء الأصحاء جداً الذين كانت أياديهم ترتجف خلال المؤتمر الصحفي .

في وقت لاحق ، في موسكو ، أحضر لي طبيبان مذكرة وصفا فيها ما كان قد طُلب منهما : زُعم لهما أن غورباتشوف مهدد بالاعتقال ويجب إنقاذه ، وأن عليهما تقديم « تشخيص متين » يفيد بأن غورباتشوف مريض جداً . وطُلب منهما أن ينجزا ذلك قبل الساعة الرابعة من بعد الظهر ، في 19 آب/ أغسطس ، قبل المؤتمر الصحفي السيء السمعة ، ليتمكنوا من إعلانه هناك . أكثر من ذلك ، كان مكتوباً أنه في 16 آب/ أغسـطس حصل انهيـار في الدورة الـدمويـة في الدماغ ، وأن حالة الرئيس سيئة جداً ، وأنه طريح الفراش عاجز عن إدراك ما يجري حوله . هذا برغم أني في الحقيقة كنت في أيام 16 و17 و18 آب/ أغسطس قد أجريت محادثات مكثفة بخصوص بعض الأحداث الهامة المقبلة ـ التوقيع على اتفاق الاتحاد ، وجلسة مجلس الإتحاد .

الوجه الأكثر صعوبة في الوضع كان النقص في المعلومات . تم قطع كل شيء باستثناء التلفزيون حيث كانت تبث بيانات لجنة الـدولة للطوارىء تفصـل بينها أفلام مصورة وموسيقى أوركسترية . لكن ضباط الأمن المسؤولين عن حمايتي الشخصية ، وهم فتيان أذكياء جداً ، وجدوا بعض أجهزة راديو مستقبِلة قديمة ، في مناطق الخدمة ، فثبتوا لها هوائيات وبدأوا بالتقاط إذاعات أجنبية . أفضـل استقبال كان لـ «BBC» و « راديو ليبرتي » . لاحقاً نجحنا في التقـاط « صوت أميركا » . صهري ، أناتولي ، تمكن من الاستماع إلى محطة غربية بواسطة راديو الجيب الذي لديه ، وهو من ماركة سوني . بدأنا نجمع المعلومـات وتحليلها وتقييم مسار تطور الوضع .

ما حدث لنا خلال تلك الأيـام يستحق تحليلاً جـدياً . لكني أرفض أي تخمين بشأن الموقف الذي اتخذه الرئيس . كان موقف الرئيس موقف مبدأ ، وهو مـا أربك أوراق المتـآمرين ، وأتـاح فرصـة أمامنـا ، بتوحيـد جهودنـا من كل الجهـات ، لإلحاق الهزيمة بهم .

محاولة ابتزاز الرئيس ، لدفعه إلى إصدار مرسوم بفرض حالة الطوارىء ، وللتنازل عن صلاحياته والتخلي عن منصبه ، كلها فشلت .

أرفض بشكل مطلق أي إيحاء بأن الرئيس لم يكن بمستوى الوضع ، أو أنه كان مهتماً بالنفاذ بجلده .

القوى التي هُزمت ستحاول فبركـة روايات من كـل الأنواع . سيقـدمون التلفيقات الأكثر فجاجة ، محاولين التشكيك بالرئيس وبالقوى الديمقراطيـة ، بهدف المساومة .

وهذه إحدى الروايات المنتشرة : إنها تفترض أني كنت على علم مسبق بمحاولة الإنقلاب ، وهي تستند إلى المقابلة التي أجراها لوكيانوف في 19 آب/ أغسطس . التحقيق سيكشف كل شيء ، بما في ذلك مدى صحة الإشاعة التي راجت ومفادها أن خطوط اتصالات غورباتشوف لم تُقطع ، لكنـه ظل بعيداً عن الطريق بانتظار انتهاء الأمـر ، وبعدهـا يصل « جـاهزاً للخـدمة » . وضـع « لا خسارة » إذا جاز التعبير . إذا نجح الانقلاب ، سيكون الرئيس هو الرابح ، لأنه أعطاهم الفرصة . وإذا فشل ، سيكون الرئيس محقاً مرة أخرى . أكاذيب مشابهة تُنشر من جهات مختلفة . عرضاً ، في 18 آب/ أغسطس ، وعندما كان يحاول إقناعي بإصدار أمر فرض حالة الطوارىء وتسليم صلاحياتي إلى ياناييف ، كان باكلانوف يناقش بالروح نفسها التي للقتلة المأجورين في أيامنا الحالية . مناشداً إياي دعم اللجنة ، قال : « خذ راحة وفي حين تكون بعيـداً سنتولى « العمـل القذر » (كذا) وسوف تعود إلى موسكو » . صدفة غريبة ، أليست كذلك ؟ لكن إذا فشلت تلك الأيام الثلاثة في زعزعتي ، فإن ذلك لن يحدث بالتأكيد الآن .

رايسا ماكسيموڤا تصرفت بشجاعة ، مثل كل أفراد عـائلتي ، رغم أنهم كانوا يدركون ما يمكن أن تكون العواقب . أنا فخـور بعائلتي . في 18 آب/

أغسطس كنت ما أزال آمل أن يتوقف أولئـك الموجـودون في موسكـو ويعيدوا التفكير ثانية ، بعد تلقيهم التقرير بشأن ما حصل معي خلال اللقاء . لكن البيانات الصباحية التي سمعناها عبر التلفزيون ، في اليوم الثاني ناقضت توقعاتي ، وأملي بأن يعي المتآمرون خطورة ما يقدمون عليه .

بـالاتفـاق مـع العـائلة وتشيـرنيـاييف قـررت ، وبغض النـظر عن كـل « الحوادث » المحتمل وقوعها ، أن أجعل نفسي مرئياً ـ لأجعل الجميع يرون أن الرئيس حي وبخير وبوضع طبيعي ـ . لأجعلهم يقارنون ويستخلصون بأنفسهم .

في اللحظة التي أعلنت الـ «BBC» فيها أن مجموعة من المتـآمرين في طريقها على ما يبدو لإظهار حالة غورباتشوف للوفد الروسي وللشعب السوڤياتي إجمالاً ، اعتبرنا جميعنا أنه قد تم تـدبير عمـل خياني مـا . وفي تلك اللحظة أصيبت رايسا ماكسيموڤـا بنوبة وجع حاد ، واحتـاجت بعض الوقت للتعـافي . ولحسن الحظ أننا كنا إلى جانبها .

أنستازيا ، حفيدتي ، كانت أفضلنا تحملاً . . . لم تكن تفهم شيئاً ، فقط تركض حولنا وتطالب بأخذها إلى البحر . . . وكان عليهم أخذها . لكن لاحقاً ، أصـرّ الحارس الشخصي بـأن نتوقف عن ذلـك أيضاً لأن كـل شيء يمكن أن يحصل . رايسا ماكسيموڤا وابنتنا إيرينا كانتا أكثر من عانى بيننا .

هزيمة المتآمرين

الأيام الثلاثة في آب/ أغسطس كانت حداً فاصلاً بكـل معنى الكلمة . أحياناً أقـول إن ما حـدث قبل الإنقـلاب كان ، إذا جـاز القول ، قبـل الحقبة الجديدة ، وبعد الانقلاب كان بداية عهد جديد .

دعوني أقول ثانية إنه وإلى حد معين ، كنت أتوقع حدوث شيء ما من هذا النوع ، وإن هناك أياماً صعبة أمامنا . كان ممكناً حدوثه حتى في خـريف السنة الماضية . كان واجبي الرئيسي يقوم على متابعة سياسة الإصلاح الجذري للمجتمع ، وعلى حماية تلك العملية المعقدة للغايـة من أن تتجاوز نفسهـا أو تنحرف عن سكّتها . كل الخطوات والأعمال التكتيكية كانت بهدف بلوغ تحقيق هذا الواجب .

لو حدث الانقلاب قبل سنة ونصف السنة أو قبل سنتين ، لكان محتملاً أن ينجح . الآن مجتمعنا قد تغيّر كلياً . أولئك الذين كانوا ، قبل خمس سنوات ، ما بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة من أعمارهم ، أصبحوا الآن في الثامنة عشرة أو العشـرين ، وقد شبّـوا بجـو مختلف ، وأصبحـوا المـدافعين الأكثـر شجـاعـة عن الديمقراطية .

المجتمع بأكمله قد تغير ، بما في ذلك الجيش . الضباط والجنود رفضوا الوقوف ضد شعبهم برغم التهديد بإحالتهم إلى المحكمـة العسكريـة . قوات الأمن والنظام ، وحتى وحدات الكوماندوس الخاصّة تصرفت بطريقة مشابهة . هنا كان الخطأ الذي وقع فيه المتآمرون : لم يدركوا أن المجتمع كان الآن مختلفاً

كليّاً عمّا كان عليه قبل خمس سنوات .

كان قد تنفس هواء الحرية ولا يستطيع أحد الآن أن يسلبه ذلك . بالتأكيد ، يريد الناس حكم القانون والاستقرار ، لكن ليس من خلال الديكتاتورية أو فرض حالة الطوارىء . بالتأكيد كان الناس متعبين من انتظار تحسن مستوى المعيشة ، لكنهم كانوا يريدون إيجاد مخرج من هذه الأزمة في إطار الديمقراطية ، لا على حساب الحرية وحقوق الإنسان ، ولا عبر استخدام القوة .

فشل المتآمرون كليّاً في فهم العلاقات الجديدة بين الاتحاد السوفياتي وشركائه في الغرب . فقد تجاهلوا التغيرات الجذرية الهائلة في الوضع الدولي لدولتنا ، خصوصاً في علاقاتنا مع شعوب الولايات المتحدة وأوروبا . لعله كان هناك في البدء بعض التردد في تقييم الانقلاب ، لكن الأغلبية الساحقة من الحكومات قالت « لا » حازمة للإنقلابيين بعد فترة وجيزة ، ورفضت التعامل معهم بأي شكل .

تقاطع هذين العاملين : الإنجازات الديمقراطية للبيريسترويكا والعلاقة الجديدة مع العالم الخارجي ، فرض سلفاً هزيمة المتآمرين .

كنت مقتنعاً دائماً ـ حتى عندما وجهوا لي إنذاراً لتسليم صلاحياتي لنائب الرئيس أو لإعلان استقالتي « لإنقاذ وطن أسلافنا » ـ أن خطتهم الوحشية لن تنجح وأنهم سيُهزمون . كانوا يدفعون البلد والشعب باتجاه كارثة . وسيكون عليهم الوقوف أمام الحساب .

كانت مخططاتهم بعيدة المدى : أولاً ، ضرب القوى الديمقراطية الأكثر تقدماً التي تحملت مسؤولية التغيير الديمقراطي للبلد والتي ستحافظ على نهجها برغم كل الصعوبات والظروف المعاكسة . ذاك كان المخطط الرئيسي . أحد عناصر هذا المخطط كان ابتزاز رئيس الاتحاد السوفياتي والإعلان أنه ورئيس روسيا قد اعتقلا . بكلام آخر ، اعتمدوا على إحداث ضربة أولى مؤثرة بعزلي في حال عدم موافقتي على التعاون مع قوى الرجعية وعزل رئيس جمهورية روسيا . مجريات التحقيق والمحاكمة ستكشف ما إذا كان الأمر سيقف عند حد عزلنا .

لكن القوى الديمقراذية أظهرت أنها ، لحظة تتوحد وتعمل معاً ، قادرة

على الدفاع عن سياسة توسيع الإصلاحات والتحولات ، وهي الطريق المؤدي إلى مجتمع جديد .

أصعب يوم كان التاسع عشر وليل العشرين والحادي والعشرين من آب/ أغسطس ، رغم أنه منذ يوم العشرين بدا واضحاً عدم نجاح المتآمرين . كانت مخططاتهم قد تعرقلت بفضل وقفة رئيس اتحاد الجمهوريات السوفياتية الإشتراكية والقيادة الروسية . في الجمهوريات أيضاً كانت الأمور قد بدأت تتغير ، رغم أن البعض أبدى تردداً في البداية .

المعركة التي نظمها بوريس يلتسين ضد المتآمرين لعبت دوراً هائلاً . أخذ موقفاً شجاعاً وتصرف بطريقة حاسمة ، متحملاً كل المسؤوليات بنفسه . كان ذلك مبرراً في تلك الظروف غير العادية وعندما عدت إلى موسكو قمت بتثبيت المراسيم التي أصدرها أثناء محاولة الإنقلاب . أعتقد أن القادة الروس تصرفوا بمسؤولية عالية في ذلك :لوضع ، وما فعلوه أملاه عليهم الوضع . بدون الموقف الثابت الذي تبنوه لكانت الأحداث أخذت منحى أكثر دراماتيكية .

في الوقت نفسه ، يجب أن أشير إلى الموقف المبدئي والشجاع لمواطني موسكو ، لينينغراد والعديد من المناطق في روسيا . موقف رؤساء وبرلمانات أغلبية الجمهوريات والسوفياتيات المحلية ، كان له دور مميز في هزيمة المؤامرة . لقد نجحوا في اتخاذ وقفة ثابتة دفاعاً عن النظام والقانون وحقوقهم غير المقيدة . في ذلك الوقت الصعب فإن أغلبية الصحفيين ووسائل الإعلام لم يخطئوا في اختيار أين ومع مَنْ يقفون : لم يخافوا ولم يتصرفوا كجبناء ولم يتملقوا مغتصبي السلطة . وكانت الجهود المبذولة من قبل المتآمرين لإثارة انطباع بأن البلد بأكمله يدعمهم ، تبدو مضحكة ومثيرة للشفقة .

وهكذا كانت عملية نوفو ـ أوغاريفو قد أثمرت . كنا قد خلقناها في الوقت المناسب وهي أحدثت تغييراً في وضع دراماتيكي .

حاول المتآمرون القيام بأبشع شيء : تأليب الجيش ضد شعبه . لكن لم ينجحوا في ذلك أيضاً ، العديد من القادة ، الضباط ومعظم الجنود ، الوحدات كلها وتشكيلات أخرى ، رفضوا تنفيذ أوامرهم . ظلوا ملتزمين بقسمهم ووقفوا

جنباً إلى جنب مع المدافعين الشجعاء عن الديمقراطية .

عندما نتكلم عن الجنرالات ، علينا أن لا ننسى أن الجنرال شابوشنيكوف لم ينضم إلى المتآمرين . إذ بعد كل شيء لم يكن من حاجة لأكثر من ثلاث طائرات حتى لا يبقى من « البيت الأبيض » (مقر السوفيات الأعلى لجمهورية روسية) إلا الركام ، والشيء نفسه بالنسبة للكرملين . قائد منطقة لينينغراد العسكري ، سامسونوف ، قال لمحافظ المدينة : يمكنك الإطمئنان إلى أنه لن تكون هناك قوات في لينينغراد . أخبرني ذلك أناتولي سوبشاك ، المحافظ .

الجيش أظهر أنه جيش مختلف بالفعل : كنتيجة لتغييرات مؤلمة وصعبة جداً أحدثتها البيريسترويكا كان جيش جديد قد وُلد في البلد . ويجب علينا أن نفيه حقه ، إذ لو كان موقفه مختلفاً لكان سهلاً جداً على المتآمرين تنفيذ مخططاتهم .

الآن هناك الكثير من التساؤل عن القدرات الفكرية للمشاركين في الإنقلاب . الموافقة على مثل هذا التساؤل تعني الوقوع في تبسيط مفرط . المسألة ليست واردة إطلاقاً . إذن ما كانت مشكلتهم ؟ . أعتقد أن كل شيء ينبع من موقفهم السياسي . لم يقبلوا البيريسترويكا والتحولات الديمقراطية وأقدموا على خطوات إجرامية متّكلين على استياء الشعب .

المتآمرون قاموا بخدعة بشعة بالإعلان عن أن الرئيس مريض جداً وغير قادر على القيام بمسؤولياته . الوجه الأكثر بشاعة في ذلك هو الخيانة . خذ مثلاً حالة لوكيانوف ، رئيس السوفيات الأعلى . جاء إليّ في الرواق بعد أحد اجتماعات السوفيات الأعلى ، ولم نكن قد تحدثنا منذ ذهب إليّ في فوروس في الحادي والعشرين من آب/ أغسطس . أكثر من ذلك لم تكن لدي رغبة بالتكلم إليه . كنت قد اعتمدت على لوكيانوف حاسباً أنه لن يخون قضيتنا أو يخونني . على مدى أربعين سنة ، منذ أيام الدراسة ، كانت بيننا علاقات رفاقية . تصرفه لا يمكن تعليله بالجبن ولا بقلة الذكاء ـ هذا أمر محسوم بالنسبة لحالته ـ لذا لا يعود بالإمكان تعليله إلا بأنه كان بناء لحسابات صرفة . التحقيق الرسمي سيجلي الأمر .

بإمكان الجميع أن يروا الآن ، أن ما حققناه خلال السنوات الست ، برغم كل الصعوبة والظروف المعقدة وغير العادية ، لم يكن شيئاً عقيماً . المجتمع امتلك الكثير . . . امتلك الحرية ، وأفشل محاولة جره إلى مسار دموي .

في كل الحوارات التي أجريتها في الساعات والأيام الأولى بعد العودة إلى موسكو ـ معَ جورج بوش ، فرانسوا ميتران ، هيلموت كول ، جون مايجور ، جيوليو اندريوتي ، برايان مولروني ، بوب هوك ، تاشيكي كايفو ، حسني مبارك ، ورؤساء دول وحكومات أخرى ـ لم يبدِ أحد رضاه على المتآمرين . وحدهما القذافي وصدام حسين فقط دعما المتآمرين .

عندما بدا جلياً الموقف غير المساوم الذي اتخذته روسيا وقادتها ، وجمهوريات أخرى وأغلبية الشعب ، وعندما أصبح ثابتاً أن الجيش لا يدعم المتآمرين ، أصيبت اللجنة التي نصّبت نفسها بالذعر وبدأت تبحث عن سبيل للخروج من المأزق .

وهكذا ، في حوالي الساعة الخامسة عشر والحادي والعشرين من آب/أغسطس ، أُعلمتُ أن مجموعة من المتآمرين قد وصلت إلى الكريميا على متن الطائرة الرئاسية . لم أكن أعرف حينها أنه جرى حديث بين قادة روسيا ، ولجنة الطوارىء ، اقترحت خلاله اللجنة أن يرافق بوريس يلتسين أعضاءها إلى الكريميا للتأكد من صحة غورباتشوف . عندما ظهر المتآمرون في «الداتشا» أعطيت الأوامر بضرورة إلقاء القبض عليهم ، وأبلغتهم عبر الحرس أني لن أتكلم مع أي منهم إلا حين يتم وصل خط التلفون الحكومي ، فأجابوا عبر الحرس أن ذلك قد يستغرق وقتاً طويلاً فأمرتُ بإبلاغهم : ليس مهماً ، سوف أنتظر .

أُعيد وصل خط التلفون . وأخبرني عامل التلفون أن كريوشكوف ، رئيس الـ (KGB) يريد التحدث إليّ ، فأجبت : دعه ينتظر . ثم اتصلت فوراً ببوريس يلتسين ، نازاربايف ، كرافشوك ، ديمينتي ، وكاريموف ، رئيس أوزبكستان . ثم اتصلت بالجنرال مويسييف وأعلمته أني عزلت وزير الدفاع ، يازوف ، من مهامه وعينته ـ مويسييف ـ مكانه مؤقتاً ، وطلبت أن تعود كل القوات إلى

قواعدها . وأصدرت أمراً إلى رئيس شبكة الاتصالات الحكومية بقطع خطوط التلفون عن كل المتآمرين . وبعد بعض الوقت أبلغني أن أوامري قد نُفذت . أعطيت أوامري لقائد الكرملين العسكري بعدم السماح لأي من مؤيدي اللجنة بالخروج من الكرملين . وأمرت مويسييف وبانيوكوف (وزير الطيران المدني) بترتيب أمر هبوط الطائرة التي تحمل الوفد الروسي ، برئاسة نائب الرئيس روتسكوي ، في المطار العسكري في بلبيك ، قرب فوروس ، ومن فوروس أجريت اتصالاً مع الرئيس بوش .

كان واجباً عليّ الاتصال هاتفياً بوالدتي ، لكني لم أكن قادراً وما زلت نادماً على ذلك. لكن ما إن عدنا إلى موسكو، حتى قمنا، رايسا ماكسيموفا وأنا بالإتصال بوالدتينا ـ ماريا بانتلييفنا والكسندار بتروفنا .

أُعلمتُ أن ايفاشكو (نائب الأمين العام للجنةُ المركزية للحزب) ولوكيانوف يتوسلان للسماح لهما بلقائي ، وأنهما يؤكدان عدم تورطهما مع المتآمرين . استقبلتهما لاحقاً ، وقد شارك في الحديث كل من باكاتين وبريماكوف (عضوين في مجلس أمن الاتحاد السوفياتي) . الآخرون ـ كريشكوف ، باكلانوف ، ويازوف ـ لم أستقبلهم ، بل ولم أضع نظري عليهم . قمنا بتوزيعهم على طائرات مختلفة وأخذناهم إلى موسكو حيث ألقي القبض على يازوف وكريشكوف لحظة نزولهما من الطائرة ووضعا في عزلة . أما باكلانوف (الذي يتمتع بحصانة برلمانية) فقد اعتقل بعد الحصول على موافقة السوفيات الأعلى .

محاولة الاستيلاء على السلطة كانت قد هُزمت ، لكن حدثت إراقة دماء . بعض المدافعين عن الحرية خسروا أرواحهم . أتقدم بأعمق التعازي من عائلاتهم ، أقربائهم والمقربين منهم ، أصدقائهم وزملائهم . أسماؤهم يجب أن تُنقش على نصب تذكارية في أماكن موتهم . سيبقون في قلوبنا .

أريد أن أؤكد ما قلته في تلك الأيام : إجراءات العقاب والمسؤولية القانونية لهذا الانقلاب يجب أن تطبق على المنظمين والذين شاركوا فيه بشكل مباشر .

يجب على الديمقراطيين ، الذين ألحقوا الهزيمة بالمتآمرين ، القيام بكل ما يستطيعون لعدم ترك انطباع لدى المواطنين بأنه سيحدث الآن أي نـوع من « مطاردة الساحرات » بهدف استغلال ما حدث وتوسيع مدى المسؤولية لتشمل أناساً أبرياء . المنظمون والمذنبون بهذه المؤامرة هم الذين يجب معاقبتهم . وقد طلبت من كل المدعين العاميـن ، وزراء الشؤون الداخلية في الاتحاد السوڤياتي وفي الجمهوريات ، والـ (KGB) بأن يتصرفوا على هذا الأساس . كان هذا رأي قادة الجمهوريات الذين تحدثت معهم بهذا الخصوص .

كنت قد وصفت أحداث آب/ أغسطس بالحد الفاصل . بعد عودتي من الكريميا وبعد « الحصار » صُدمت بالحالة التي كان فيها مجتمعنا . كان البلد في حالة صدمة وتشوش . مباشرة بعد انهيار محاولة الاستيلاء على السلطة وكرد فعل عليها ، قويت عملية تفكك البلد . فقد تبعتها سلسلة من الخطوات الإنفعالية وإعـلانـات عن الاستقـلال . كـانت نـوعـاً من الـدفـاع عن النفس من جهـة الجمهوريات للرد على محاولة الإنقلاب .

كان هناك إنـذار متنـامٍ لخطر إمكانية تفكك الاتحاد السوڤياتي . علينا أن نقيّم بواقعية رد الفعل تجاه الانقلاب في البلد . يجب ألا نفشل أو نسيء تقدير حقيقة أنه كانت هناك قوى متعاطفة مع المتآمرين ، أو قوى أخذت موقفاً حيادياً . القوى الرجعية فقدت قيادتها ، لكن الوضع يـظل معقداً ، رغم أن احتمـالات هائلة جديدة فُتحت أمام استمرار الإصلاحات الديمقراطية .

ما حدث كان درساً مؤلماً جداً لي شخصياً . خلال الأيام والأسابيع التي مرت أعدت النظر والتقييم بأشياء كثيرة ، ووصلت إلى استنتاجاتي من المأساة التي حصلت . لقد قيل إني عدت إلى بلد مختلف . أوافق على هذا القول ، وأستطيع أن أضيف أن الرجل الذي عاد من الكريميا إلى بلد مختلف بدأ الآن ينظر إلى كل شيء ـ الماضي ، الحاضر والمستقبل ـ بعيون مختلفة . لكن مهما حصل فلن أسمح بأي تردد أو إضاعة وقت في تنفيذ الإصلاحات ما دمت رئيساً . ومن الآن فصاعداً لن يكون هناك أي مساومة مع أولئك الذين لا يستحقـون السعي للتفاهم معهم .

لكن اليوم ، وربما أكثر من الأمس ، أريد أن يتم كل ما نفعله في إطار الديمقراطية وبدون إراقة دم .

على أي حال ، علينا الآن العمل . الكثير ما يزال غير واضح . كانت البداية لحقبة جديدة .

دروس الانقلاب

كلما حاولت تحليل ما حصل لأصل إلى عمقه ، أحاول فهم ما دفع هؤلاء الأشخاص للتورط في الخيانة . أعتقد أن الأمر ليس فقط نتيجة أخطائي في اختيار الأشخاص . فبرغم كل شيء ، بين المتآمرين أشخاص عملت معهم سنوات طويلة . هذا يعني أن البيريسترويكا قد أظهرت اختلافاً جوهرياً بكل معنى الكلمة في وجهات النظر حيال ما يجب علينا بلوغه في نهاية المطاف . وقد ظهر أن هؤلاء الأشخاص غير قادرين على فهم أو قبول ما تقودنا إليه البيريسترويكا .

أثبتت أحداث آب/ أغسطس استحالة إلغاء التغييرات التي أوصلتنا إليها العملية الديمقراطية والغلاسنوست . اختراق حقيقي باتجاه أسلوب جديد للحياة كان قد أخذ مكانه . جماهير غفيرة من الشعب أصبحت تدرك معنى المواطنية ، برغم كل مصاعب الحياة اليومية ، التي تمثل الحرية أعلى قيمها .

سبب آخر لفشل الانقلاب كان أن العالم حولنا ادانه ، ووقف إلى جانب الدفاع عن الديمقراطية في بلدنا ، باعتباره جزءاً من العالم الديمقراطي . كان أمراً طبيعياً تبني هذا الموقف : بفضل الـ « التفكير الجديد » والسياسة الخارجية التي استند إليها لم يعد الاتحاد السوفياتي عدواً في هذا العالم . والآن بدأ يُنظر إلى نجاح البيريسترويكا كشرط ضروري لأمن وتقدم البشرية .

يجب أن نحكم على كل شيء برصانة ، أن نحلل بلا رحمة ، أن ننظر إلى

الأمور بواقعية ، وأن نقر بأنه كانت هناك ظروف ربط فيها المتآمرون مخططاتهم . حدثت أخطاء في الشفين الاجتماعي والاقتصادي وفيما يتعلق بإزالة البنى القديمة . أكثر من ذلك ، كان يجب البدء بعملية نوفو.. أوغاريشو في وقت أبكر .

اتكل المتآمرون على السخط المنتشر بين الناس بسبب ضعف النظام في البلد وعدم قدرة السلطات على ضمان سلامة المواطنين والملكية . وكانوا ينوون استغلال القلق الموجود في المجتمع إزاء الأخطار الناتجة عن النزاعات الإثنية الداخلية وخطر احتمال تفكك البلد .

كما اتكلوا أيضاً على حقيقة أن القوى الديمقراطية لم تكن قد أصبحت واعية كفاية للحاجة الحيوية للتعاون والعمل المشترك . الديمقراطيون تصرفوا بأسلوب غير منسجم ، وحتى أنهم دخلوا في معارك سياسية فيما بينهم . نحن ، الناس الملتزمون بالنهايات نفسها ، كنا منقسمين وجُررنا أحياناً إلى المتاريس السياسية المتواجهة . كنت قد قلت أكثر من مرة إنه عندما تتصارع مجموعات متنوعة ، من بين الذين يدعمون الديمقراطية ، وتخوض معارك سياسية فيما بينها ، فإن ذلك أفضل هدية لأولئك المعادين لسياسة الإصلاحات . هذه نتيجة لقلة البصيرة والإحساس بالمسؤولية تجاه القضية المشتركة ، وهذا النقد ينطبق عليَّ كلياً .

صحيح أن المتآمرين لم ينجحوا في تنفيذ خطتهم إلى النهاية ، وجرّ الجيش للوقوف ضد الشعب . وقد أظهر هذا الجيش أنه مع الشعب . لكن مع ذلك ، فقد ظهر أن هناك إمكانية لإخراج أعداد ضخمة من القوات والدبابات والآليات المدرعة الأخرى إلى الشارع دون أية موافقة من قبل أعلى هيئة تشريعية في البلد . هذه حقيقة واضحة ، وهي تعني أن هناك خطأ ما في الماكينة الحكومية لدينا .

إعادة تنظيم لجنة أمن الدولة (KGB) ، التي كانت حاجة واضحة ، لم تكن قد تحققت . بالطبع ، إن مهمة العاملين في جهاز الأمن حماية مصالح الدولة عبر جمع المعلومات والقيام بالتجسس المضاد . هذا ما يجب أن تقوم به اللجنة ، لكن وإلى جانب هذه المهمة ، وحتى في ظروف التحولات الديمقراطية

العميقة ، ظلت اللجنة وكجـزء من تنظيمهـا تقوم بعمليـات التحقيق السياسي والصراع الايديولوجي .

ما كان ممكناً للمتآمرين أن يحاولوا تنفيذ مخططاتهم لو وقف السوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريـات السوفيـاتية الإشتـراكية ورئيسـه في وجههم بحزم وصلابة . الأحداث تطلبت اجتماعاً فورياً للسوفيات الأعلى . روسيا فعلت ذلك من غير إبطاء ، وقد لعب ذلك دوراً هائلاً في مقاومة الانقلاب . لكن السوفيات الأعلى لاتحـاد الجمهـوريـات السـوفيـاتيـة الإشتـراكيـة فشـل في ممـارسـة صلاحياته الدستورية .

أين كانت اللجنة التنفيذية الدائمة للسوفيات الأعلى ؟ أين كـان النواب أنفسهم ؟ لماذا لم يهرعوا فوراً إلى العاصمة ؟ عندما تستجد أوضاع كهذه يفترض بهؤلاء النواب أن يكونوا في العاصمة ، حيث تتمركز البنية الأساسية للسلطة ، وذلك بدون أي برقيات أو اجتماع أو بلاغات .

لأنه لو اجتمع السوفيات الأعلى في 19 آب/ أغسطس لكان ممكناً إيقاف الانقلاب في لحظاته الأولى . هذا يعني أن علينا ابتكار ماكينة دستـورية تلغي إمكانية تكرار ما حصل . فمهما كان الأشخاص الذين يرأسون السوفيات الأعلى جديرين بالثقة ، إلا أنـه لا بد من وجـود آلية تضمن ، في الأوضـاع الحرجـة والمصيرية للبلد ، التفعيل الفوري للسوفيات الأعلى ، الجسم التشريعي الأعلى لدينا ، للدفاع عن حكم القانون والنظام وحقوق المواطنين .

بصفتي رئيساً أتحمل أنا جزءاً كبيراً ، بل الجزء الأكبر من مسؤولية حقيقة أن آلية السوفيات الأعلى لم تعمل ، وأن العـديد من وزراء الحكـومة كـانوا ، وبشكل مخجل ، جبناء وعديمي الحيلة في مواجهة الانقـلاب ، وأن الهيئات الثلاث التي تدير القوات المسلحة كانت في يد أشخاص قادرين على الانضمام إلى الانقلاب .

علينـا استخراج كـل الدروس ممـا حـدث ، وليس فقط على المستـوى المعنوي ـ السياسي ، علينا ابتكار وتأسيس نظام دستوري يمكن الإتكال عليه ، ونظام رقابة عامة على نشاط القوات المسلحة وأجهزة الأمن والقانون . لجنة أمن

الدولة (KGB) يجب أن يُعاد تنظيمها بدون أي تأخير .

الكثير قد أُنجز وقُرر وتغير في هذا المجال .

الدرس الرئيسي الذي قدمته لنا أحداث آب / أغسطس هو أن علينا تسريع عملية الإصلاح الديمقراطي .

فوق كل شيء ، علينا إزالة كل العوائق التي أوجدتها البنى القديمة وجماعاتها في طريق اقتصاد السوق ، وأن نوفر حرية كاملة للأعمال ، نتخلص من الاحتكارات وأساليب الإكراه والإملاء من فوق ، والإسراع في إيجاد المؤسسات الرئيسية لاقتصاد السوق .

كان هذا الهدف في بالي عندما دعمت اقتراحاً بتأسيس مجلس مقاولين مرتبط بمكتب رئيس الدولة . وبالفعل وضع هذا المجلس خططه الأولى لتشجيع نشاطات المقاولة في كل قطاعات الاقتصاد .

علينا تقديم كل الدعم لكل ما من شأنه إعطاء إصلاح الأراضي دفعة جديدة . هناك أرض ، ويجب إزالة كل العوائق التي تمنع توفيرها لكل من يريد زراعتها . دعم الدولة ضروري هنا . كل هذه المشاكل يجب أن تُحل قبل هذا الخريف والشتاء . ومن الواضح أننا في هذه الحالة أيضاً علينا الاستعانة بمبادرة الشعب .

لم يعد بإمكاننا الآن تأجيل الإصلاح الجذري لسياستنا المالية والإئتمانية . يجب أن يكون هناك تقليص قاس في الإنفاق الحكومي وفي عجز الميزانية ، إضافة إلى تطبيع عملية تداول المال .

إننا بحاجة لإصلاح جذري لكل علاقتنا الاقتصادية الخارجية ، بما في ذلك الإجراءات المتعلقة بالعملة الأجنبية ، الاستخدام المؤثر للقروض والمساعدات الاقتصادية الأخرى ، وإنجاز مشاريع كبرى .

علينا الامتناع من تقديم وعود لا تستند إلى أساس وخطط غير واقعية . والتركيز بدل ذلك على الأسئلة الرئيسية المتعلقة بالحماية الاجتماعية للفئات العاملة في فترة الانتقال إلى اقتصاد السوق : الحفاظ على مستوى معيشة الناس ، خصوصاً أولئك ذوي الدخل المنخفض ، وتأمين العمل والسكن .

ليس من وقت لإضاعته . علينا أن نعمل بشكل ملموس حتى لا نفقد ثقة الناس . لأننا بقمع مؤامرة الانقلاب ، أكرر ، كنا قد ضربنا رأس التنين فقط . قوى الرجعية ما زالت موجودة ، وقوية ، وهي تقوم بخطوات لإعادة ترتيب أوضاعها مستفيدة من درس فشلها وعجزها خلال المحاولة الانقلابية .

أخيراً ، علينا ، نحن الذين هزموا المؤامرة وتصدوا بثبات للمخططات الإجرامية ، ألا نسمح لعواطفنا ورغباتنا بالجموح بنا ، وألا نستخدم الأساليب نفسها التي لجأ إليها المتآمرون . هناك مثل هذا الخطر ، لكنه إذا أصبح واقعياً فإننا قد نخسر كل ما ربحناه نتيجة إسقاطنا للانقلاب .

الآن ، علينا أن نكون في غاية الحذر ، أن نضبط أعصابنا ، وألا ننجر للاستفزاز . هناك الكثير من العمل الصعب أمامنا . قبل كل شيء علينا القيام بكل ما يمكن أن يحسّن معيشة الشعب . هذه هي الأولوية القصوى الآن .

ما مررنا به مؤخراً كان دراما دفعت كل المشاكل والتناقضات إلى حدها الأقصى . لكن ، بالمقابل ، هذه الأحداث ، كمياه فيضان في الربيع ، جرفت الكثير مما كان يعيق حركتنا إلى الأمام . علينا الاستفادة من الوضع الذي برز لتسريع حل كل مشاكلنا . قد يقول المرء إنها كانت نوعاً من الوقفة الطارئة على الطريق وإن علينا الآن التحرك إلى الأمام بعزيمة أقوى ، وأن نستفيد كلياً من الفرصة التاريخية المفتوحة أمام البلد .

كشخص رأس الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي منذ 1985 ، لا أستطيع إغفال السؤال بشأن الموقف من الشيوعيين . موقفي هو هذا : أُعارض بحزم إثارة هستيريا العداء للشيوعية أو السماح بإدانة ملايين الشيوعيين ، وهم أناس شرفاء لم يفعلوا شيئاً يلطخ سمعتهم . لوقت طويل كنت بالفعل أظن أن الحزب الشيوعي يمكن إصلاحه . لكن انقلاب آب/ أغسطس أسقط هذه الآمال . أدركت ذلك بعد فترة وجيزة من عودتي من الكريميا .

لقد بدا واضحاً أن الأشخاص الموجودين في زعامة الحزب ، بالدرجة الأولى في سكرتيرية اللجنة المركزية ، لم تكن لديهم الشجاعة للوقوف ضد الانقلاب والدفاع عن دستور الاتحاد وعن الأمين العام ، والإصرار على الإجتماع

به . ولأنهم في الجوهر ، دعموا لجنة الطوارىء فقد انحرفوا بالحزب عن الطريق الصحيح ووضعوه على طريق قاتل . العديد من لجان الحزب قررت دعم المتآمرين .

عند الحديث عن مسؤولية الهيئات القيادية ، اعتقد أن من الأهمية بمكان التمييز بين ملايين الأعضاء في الحزب وبين الديمقراطية الحزبية . قلت ذلك فوراً ، لحظة توفرت لي فرصة فعل ذلك ، في 22 آب/ أغسطس لعلي أكرر نفسي ، لكني سوف أقول ثانية : الانقلاب قضى على كل أمل بإصلاح الحزب الشيوعي للاتحاد السوڤياتي وتحويله إلى حزب حديث ديمقراطي . لهذا استقلت من منصب الأمين العام واقترحت أن تحل اللجنة المركزية نفسها .

الأحزاب في الجمهوريات يعاد تنظيمها ويتم تغيير برامجها وأسمائها . من المحتمل ، أنه في وقت ما سيتشكل حزبان رئيسيان في بلدنا : اشتراكي وديمقراطي . الأمر الأكثر أهمية هو أن يكون ملايين أعضاء الحزب ، الذين لم يكن لهم أي شأن بالإنقلاب ، قادرين على الاختيار باستقلال وبدون أي ضغط عليهم .

أنا واحد من أولئك الذين لم يخفوا أبداً قناعتهم . أنا مؤيد صلب لفكرة الاشتراكية . إنها فكرة تشق طريقها منذ عدة قرون ، ولها الكثير من المؤيدين وقد تسلموا رئاسة الحكومات في عدد من الدول . هناك فروع متنوعة للحركة الاشتراكية ، لأنها ليست موديلاً يجب إلباسه للمجتمع . لا ، إنها فكرة ، بالتحديد فكرة، تحتضن قيماً تطورت في مسار البحث عن مجتمع أكثر عدلاً وعالم أفضل . إنها فكرة تستمد قوتها من إنجازات كثيرة للمسيحية ومن نزعات فلسفية أخرى . فكرة الإشتراكية موجودة في العديد من الحركات السياسية والاجتماعية .

أعتبر نفسي ديمقراطياً وأسند تفكيري على افتراض مفاده أن فكرة الإشتراكية بدون ديمقراطية وبدون حل صحيح وموثوق به للمشاكل الاجتماعية ، غير ممكنة . وعند التحدث عن الإشتراكية علينا إدراك أننا نقصد نوع الإشتراكية الموجود في بلدنا الذي أثبت فشله ، لا فكرة الإشتراكية بحد ذاتها .

هناك سؤال يُطرح أحياناً : هل كانت ثورة أوكتوبر كارثة أم كانت رغم كل شيء ثورة أصيلة ؟ افهم لماذا يُطرح سؤال كهذا ـ لأن نتائجها التاريخية لم تكن تلك التي كان يأمل بها الذين صنعوا الثورة . لكنها لم تكن نتائج تطبيق أفكار أوكتوبر ، التي هي ثورة شعبية أصيلة . كانت نتائج الفرض القسري للنموذج الستاليني للمُجتمع . على المرء ألا يخلط بين الأمرين .

أما بالنسبة لوجهات نظري الخاصة ، فإنني على مدى السنين قمت بكل ما يمكنني لوضع حد للستالينية . بدون ذلك ليس هناك أدنى جدوى حتى لمجرد التفكير بإدراك فكرة الإشتراكية . الحياة في كل بلد يجب أن تكون من صنع المواطنين أنفسهم . وواجبنا الآن أن نوسع ونطور مجالات الديمقراطية في كل الميادين ، في حركة هادفة لتحقيق المزيد من العدالة للشخص وتثبيت حقوقه ، وحريات وحقوق الشعوب . وتلك هي بالفعل الحركة في اتجاه تحقيق فكرة الاشتراكية . هكذا أفهم المشكلة .

في بعض الخطابات الحادة ، بصفة خاصة ، بعد أحداث آب/ أغسطس كان يمكن سماع مطالب بأن يقوم السوفيات الأعلى وحكومة جمهورية روسيا ومجالس السوفيات الأعلى وحكومات جمهوريات أخرى ، بنبذ الاشتراكية من على أراضي الاتحاد السوفياتي . يوتوبيا خطيرة جداً . ومن الواضح أن أحداً لن ينجح في تحقيقها . وواضح أيضاً أنها لا تعدو كونها تكراراً آخر للحروب الصليبية ، للحروب الدينية بشكل معاصر ، قادر على إثارة حرب أهلية .

لقد أعلنّا حرية المعتقد والتعددية السياسية في بلدنا . والقيام بمهمة طرد الإشتراكية من على أراضي الإتحاد يعني الدعوة لـ « مطاردة الساحرات » . الشخص يقرر موقفه الخاص ويختار الحركة أو الحزب الذي يحبذ ، أو يختار البقاء خارج كل الحركات والأحزاب هذا هو مبدأ حرية الاختيار الذي ألزمنا أنفسنا به ، ويجب لحظه بحزم في حياتنا .

الجلسة الطارئة للسوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية

بينما كنت أستعد للجلسة ، التي افتتحت في 26 آب/ أغسطس وجدت نفسي أمام مهمتين أساسيتين .

في المقام الأول ، وبغض النظر عن أي شيء ، كان علينا تعزيز حكم القانون والنظام . أي مسعى آخر كان ببساطة غير مقبول . كان مفهوماً إحساس الناس بأن غضبهم مبرر ، لكن لم يكن صحيحاً السيْر ، تحت تأثير هذا الغضب ، في درب تمرد على القانون بلا ضوابط . كان ذلك من شأنه تلطيخ الانتظار على المتآمرين ليفيد فعلياً أولئك الذين كانوا يريدون إثارة القلاقل .

العدالة تتطلب تقييماً لسلوك أولئك الرسميين الذين كان بإمكانهم إبداء مقاومة ما للمحاولة الانقلابية ، ولم يفعلوا ذلك ، والذين أخذوا موقف الانتظار أو كانوا مستعدين حتى للرضوخ لمطالب لجنة الطوارىء المجرمة . وبما أنهم لم يجدوا بأنفسهم الشجاعة لأخذ موقف الدفاع عن القانون ولم يستقيلوا احتجاجاً ، فليفعلوا ذلك الآن .

لكن بعد كل ما حدث علينا عدم الانجرار في درب إدانة الناس والتصرف كما تصرف بعض الناس في أوقات سابقة . لأنه علينا البقاء في إطار الديمقراطية والغلاسنوست ، للتحرك باتجاه دولة ترتكز على حكم القانون .

باختصار ، أنا لا أقبل بالاتهامات التي تطلق عشوائياً وبدون تمييز . بل علينا تحليل كل قضية بشكل منفصل ، هذه هي الطريقة الوحيدة . تساهل ، لكن

أيضاً لا تجاهل للقانون . علينا عدم التسامح بأي تسوية حسابات مع خصوم سياسيين أو الإدانة بسبب التفكير المستقل أو بسبب الانتماء لمنظمة سياسية أو لأخرى . مجتمعنا ، الذي ذاق طعم قمع وحشي في ظل نظام ستالين ، حساس بشكل خاص حيال أمور كهذه .

في المقام الثاني ، اعتبرت أن الأمر الأكثر أهمية هو إحياء العملية المرتبطة بمعاهدة الاتحاد . المتآمرون نجحوا بإلغاء التوقيع على المعاهدة ، الذي كان مقرراً في 22 آب/ أغسطس . إلى جانب البيان الذي أصدرته ما يُسمى بلجنة الطوارىء ، في 19 آب/ أغسطس كان هناك تصريح للوكيانوف ، عرفت لاحقاً ، أنه أذيع مرات عدة عبر وسائل الإعلام ، وفيه يحاول إثبات أن المعاهدة ليست جيدة وبالتالي يجب عدم التوقيع عليها .

لكن المسودة كانت تمثل توازن مصالح بين كل المشاركين في اتفاق نوفو- أوغاريفو . وقد وافقت على المقترحات التي وردت في خطابات قادة حكومة روسيا الفدرالية ، ومن قبل المشاركين في اجتماع المندوبين من لينينغراد ومن شمال غرب روسيا ، القائلة بعدم تأخير التوقيع على المعاهدة .

خلال اجتماع مع قادة تسع جمهوريات في 23 آب/ أغسطس ، في اليوم الثاني بعد عودتي من الكريميا ، كان الرأي الغالب أن يتم التوقيع على المعاهدة بأسرع وقت ممكن دون أي تأخير . أريد التشديد هنا على أن المسألة لم تكن إنجاز العملية بالشكل النهائي ، بل مجرد بداية تحول عميق لاتحادنا .

ربما النتيجة الأكثر مأساوية للانقلاب كانت أن الأيام الثلاثة قد هيجت وأعطت دفعاً حقيقياً للنزعات النابذة في البلد . وقد برز خطر حقيقي بأن تتفكك الدولة ولا يعود هناك اتحاد . أفكر بهذا الشأن باستمرار وبإحساس كبير بالتوتر والقلق . لأنه إذا حدث ذلك ، فإن كل كلامنا وكل خططنا للمستقبل ستكون عندها مجرد هذر .

وضعت هذه المسألة في صدارة الأمور المهمة والأساسية ، وعلى وجه التحديد منذ سمعت الكثير من التعليقات على نمط : دعنا ، يقولون ، نستمر على هذا المنوال ، أن نمضي في دروب منفصلة ثم نعود فنلتقي معاً من جديد .

الجميع كانوا يفضلون أن يكون لدينا نظام واحد للدفاع والقوات المسلحة . هذا لا يعني أنه في بعض الأماكن ، لنقل روسيا ، لا يمكن أن يكون هناك حاجة لحرس وطني من ثلاثة أو أربعة آلاف رجل في الأوضاع التي تكون فيها سلامة البرلمان مهددة ، أو شيء من هذا القبيل . ذلك موضوع آخر . لكن في المبدأ ، نحن بحاجة لقوات مسلحة مشتركة واقتصاد سوق مشترك . باختصار كان هناك اتفاق على إدراج التعديلات الضرورية على مسودة المعاهدة وعلى ضرورة بدء عملية التوقيع .

الجلسة استقبلت هذا الإعلام بالترحيب . وفي الوقت نفسه كان يمكن سماع وجهة نظر مختلفة بوضوح خلال المناقشة : فلنتخلص من المعاهدة ـ وكما قيل فإننا بالفعل في بلد آخر وعهد آخر . بالطبع ، لم يكن بمقدورنا تجاهل ما حدث خلال أيام آب/أغسطس تلك. التعديلات كانت ضرورية ـ تلك التعديلات التي تأخذ بعين الاعتبار التجربة المأساوية التي مررنا بها والدروس المستخلصة مما حدث . اعتبرت أنه أمر حيوي أن يتعامل قادة الجمهوريات الذين يؤيدون المعاهدة مباشرة معها . وبالتحديد لأنه منذ ذلك الحين تم التوصل إلى تفاهم للبدء فوراً بوضع مسودة اتفاقية اقتصادية بين الجمهوريات .

كنتيجة لما تقدم تكلمت بوضوح كلي أمام جلسة السوفيات الأعلى مؤيداً إدخال تغييرات على مسودة معاهدة الاتحاد . لا كرد فعل على الوضع الذي وجدنا أنفسنا فيه والإدعاء بأن كل شيء قد عاد إلى ما كان عليه قبل 18 آب/ أغسطس . لكن لم يكن بإمكاننا أن نرمي كل ما جنيناه من عملية نوفو ـ أوغاريفو وما فعلناه قبلها . قد يكون ذلك خطأ .

لم نكن قد انفصلنا أو تفككنا بعد : كنا فقط قد سمحنا للروابط بين الجمهوريات أن تضعف وللمواجهة أن تبدأ . العلاقات السابقة كانت قد تزعزعت . فبأي حالة كان البلد نتيجة ذلك ؟ ما الذي قد ينتج عن رفض التوقيع على المعاهدة ؟ ما الذي يمكن أن يحدث إذا بدأت الجمهوريات ترفض الاتحاد بشكل مطلق ، إذا شرعنا بتسرع وبجو انفعالي في حل المشاكل المعقدة بشكل غير عادي المتعلقة بمصير هذه الدولة الضخمة التي احتاجت ألف سنة لتأخذ

شكلها الحالي ؟ والمشاكل المتعلقة بمصير عشرات الملايين من الناس ، حقوقهم المدنية ، الحدود ، وملكية الأملاك العامة والثروة التي تراكمت بفعل عمل الشعب بأكمله ؟ .

لا : علينا العمل معاً لنخلق في إطار دولة اتحادية جواً واحداً ، ديمقراطياً ، اقتصادياً ، عامياً ، تكنولوجياً وحضارياً ، لتبريد عواطفنا لكن ليس على حساب إثارة المشاكل القديمة المرتبطة بالحدود . وإلا سيتنامى المد الانفصالي وسيكون الوضع أصعب . علينا أن نعرف أين نقف .

حتى خلال مسار الجلسة عقدت اجتماعات مع يلتسين ، اكاييف (رئيس كيرغزستان) نازاربايف والكسندر ياكوفليف . بحثنا معنى ما كان يحصل في موسكو وحول العاصمة ، وما كان يجري في كل الأقاليم . كان الوضع متوتراً ، كان هناك اضطراب في كل البلد : الناس قلقون ، مهتمون بما قد يحدث لهم وبما ينتظرهم . تبادلنا وتوافقنا على إعلام أعضاء السوفيات الأعلى بموقفنا المشترك . الموقف هو : إن دولة الاتحاد يجب صيانتها كاتحاد لدول ذات سيادة .

طمأنت المندوبين أني سأبذل ما بوسعي لضمان عدم اجتياز الخط الفاصل الذي قد يجعل انهيار اتحادنا أمراً لا مفر منه . كان الوضع يفرض الحاجة لاتحاد دول ذات سيادة . تلك المعادلة يجب أن تكون أساس تحضير المعاهدة ، مع الأخذ بعين الاعتبار ، طبعاً ، تجربتنا الأخيرة . كنت مع اتحاد متجدد ، اتحاد مقوَّم جذرياً ، لكني كنت مع صيانة الاتحاد ومع تحقيق إرادة الشعب كما عبر عنها استفتاء 17 آب/ أغسطس وإذا لم يحدث ذلك ، وإذا كان سيحصل شيء مختلف ، سأنسحب عندها . كان فشلنا محتوماً إذا حطمنا الاتحاد . أؤكد لكم : ستكون كارثة .

البعض عبّر عن شكه بأني أقوم عن قصد بإثارة شيء ما ، وأني ألقي خطابات هدفها تقسيم البلد ، وضع الناس ضد بعضها البعض لإبقائهم تحت حكمي ، وأشياء كثيرة من هذا النوع . وكان هناك أيضاً أشخاص رأوا في الموقف الذي اتخذته محاولة للحفاظ على الامبراطورية بأي ثمن . كلام سخيف .

عندما حلّت الشكاوى التي كانت قد بدأت تظهر في بلدنا بسبب مشاكل اللغة وبسبب مشاكل أخرى ، مثل المسائل الثقافية ، التي تُركت بلا حل ـ التي بدأت في البداية غير ذات أهمية لكنها لمست الناس في الصميم ـ أدركت أنه ، إذا حاولنا التعاطي بأمور أكثر جدية ، فإن البلد سيبدأ بالتمزق وإن قوى ما ستظهر ولا نستطيع التعامل معها . ونتيجة تفكيري مليّاً بهذا الأمر وصلت إلى قناعة راسخة بأن علينا تجنب الإنقسام بكل الوسائل وأن نعمل على توزيع وتقسيم الصلاحيات وإصلاح الاتحاد في العمق . ليكن المركز مثلما تريد الجمهوريات أن يكون . لكن دعونا نبقى معاً . عندها نستطيع أن نختط طريقنا للخروج من الأزمة والتغلب على كل شيء معاً فنستعيد عافيتنا . لدينا كل شيء ، ونستطيع الآن الرهان على القوى المتراكمة والكامنة للبيرويسترويكا والتحرك بسرعة على درب الإصلاح .

كان هناك وقت لم يُولَ فيه أي اهتمام بأمور كثيرة ، وكانت مناطق بأكملها تُنقل من سيطرة جمهورية إلى أخرى . على أي حال ، كان يُقال ، فإننا في دولة واحدة ، فماذا يهم ؟ كانت المشاكل تبرز أحياناً كقضايا محلية ، لكن في معظم الحالات كانت تُسوّى بسرعة ـ بمَا أننا ، وبعد كل شيء ، كلنا معاً ـ . لكن وراء المظهر الخادع للسياسة ، التي زعمت « صداقة الشعوب » وحتى « دمج » الأمم معاً ، فإن الكثير من المشاكل قد تراكمت .

أصبح بإمكاننا الآن إدراك الكثير من الأمور . نأخذ بجدية احتمال عدم رغبة بعض الجمهوريات بالتوقيع على المعاهدة ، ويمكن القول إنها ستسلك طريق الانفصال ، لكن فليتم كل شيء في إطار دستوري . إذا تركت جمهورية ما الاتحاد ستبرز سلسلة معقدة من المشاكل التي سيكون اختبارها أمراً حيوياً ـ قانونية ، إنسانية ، حدودية ، عسكرية ، اقتصادية وغيرها .

خلال جلسة السوفيات الأعلى عبّرت عن وجهات نظري حيال ما سيكون عليه الاتحاد الجديد . قلت يومها ، وأقول الآن إن العلاقات داخل الاتحاد يجب أن تكون مبنية على أساس من الاتفاقيات والمعاهدات التي تغطي قضايا الدفاع والاقتصاد ، وبالخصوص قضية حقوق المواطنين . يجب أن يكون هناك جهاز

كامل من الاتفاقيات . من المحتمل أن تبرز أسئلة بشأن الأراضي ، لكن مسودة معـاهدة الاتحـاد تقول إن « الحـدود لا تُمس » . هـذا الكـلام تـردد في كـل الاجتماعات خلال الشهور الثلاثة أو الأربعة الماضية ، وكان كل شخص يحدد موقفه بوضوح وبساطة : يجب عدم انتهاك الحدود . هذا مفهوم ، خصوصاً أننا عندما كنا نعيش في اتحاد سوڤياتي موحد لم نكن نعرف بشكل صحيح أين هي حدودنا الداخلية ، لأن سبعين بالمئة منها ثُبتت من قبل سوڤياتات المقاطعـات والمدن والقرى .

في اتحاد مُجدد ومُصلح ستقوم الجمهوريات نفسها بإنشاء هيئات اتحادية جديدة تمتلك قوى بقدر ما يستثمر الاتحاد فيها .

كانت مناشدتي ، وكنتيجـة للنقاش في السـوڤيات الأعلى ، أنه يجب الإعلان عن موقف واضـح ودقيق من مستقبل اتحـادنا ، وأن كـل شيء يجب التفكير به بانتباه ليكون ممكناً الحفاظ على الاتحاد وليستمر بالتطور لتأمين مصالح الناس في تلك الجمهوريات التي تقرر الحفاظ عليه والتوقيع على المعاهدة . المندوبون سمعوا مناشدتي .

ناشدت أعضاء السوڤيات الأعلى ، الذين يمثلون الناخبين في روسيا ، أن يستخدموا صلاحيتهم والفرص التي أتيحت لهم بهدف توحيـد البلد في اتحاد جديد . في الوقت نفسه ، رأيت من الضرورة القول للمندوبين من جمهوريات أخرى بأن عليهم عدم إخفاء أية شكوك تجاه الشعب الروسي . احترام الشعوب الأخرى من مزايا الروسيين وسوف يستمر . ويجب عدم السماح لأحداث عابرة أن تطمس ما علّمنا إياه التاريخ ، قرون من التاريخ .

عملياً ، كل المتحـدثين في الجلسـة عبّـروا عن قلقهم إزاء حقيقـة أن المحاولة الإنقلابية بين الجمهـوريات والأقـاليم ، الذي كـان ضعيفاً قبـل هذه المحاولة . كان ذلك صحيحاً بالفعل ، ولهذا طرحت خلال الجلسة ما يجب أن تكون المهمة الثانية البالغة الأهمية ، وهي ضرورة العمل للحفاظ وتعزيز قدرتنا على إدارة البلد . علينا الاهتمام سريعاً بكـل المصاعب التي تفـرضها الحيـاة علينا ؛ علينا أن نعمل الآن لا أن نحطم . علينا ترقية أشخاص جدد إلى هيئات

الحكومة ، أشخاص نثق بهم ويمكن أن تتبعهم البلد . نحن بحاجة لإعادة تجميع القوى السياسية ، وإقامة هيئات اتحادية خلال الفترة الانتقالية ، وبعدها ، في غضون شهور قليلة مقبلة ، تُجرى انتخابات حرة لتشكيل بنى جديدة للسلطة .

لماذا طرحت بهذه الحدة مشكلة الإدارة ، وعدم السماح بفقدان السيطرة على الأمور ؟ لأنها قضية مرتبطة بتأمين إمدادات الغذاء الكافية ، الوقود ، والعمل ، واستمرار الإصلاحات .

هنا لا بد من الإشارة إلى رضاي العميق تجاه الميل الذي ظهر خلال الجلسة بعدم الموافقة على القيام بأعمال الانتقام السياسي ، وأية إدانة لأشخاص بسبب آرائهم وصرفهم من أعمالهم أو تجريدهم من حقهم بالدفاع عن أنفسهم . كان المندوبون مجمعين على ضرورة فرض حكم القانون وعدم انتهاك النظام القانوني . وقد تحدثت لصالح مبادرة أعلنها مندوبون ، وهم محامون محترفون ، ودعوا فيها السوفيات الأعلى للتمييز بوضوح بين ما قد تثبته التحقيقات والمحاكم وبين ما قد يندرج في خانة التقييمات السياسية والتغييرات الشخصية . وقد دعمت أيضاً اقتراحاً بإنشاء لجنة برلمانية تأخذ دوراً في العملية .

العديد من المندوبين تعرضوا لي بانتقاد جارح ، لم يكن بدون أساس . كان مؤلماً الاستماع لهذا الانتقاد ، لكن كان ضرورياً . رأيت من واجبي الإعلان مرة ثانية وثالثة بأني كرئيس كنت منزعجاً للغاية مما حدث . شعرت بمسؤوليتي أمام المندوبين عن حقيقة أني لم أقم بكل شيء ممكن لمنع انقلاب آب . لم أعتقد أنه كان ممكناً حينها ، ولا أعتقد أنه ممكن اليوم ، التقليل من شأن ما حصل أو تحريفه أو تجاهله . أكثر من مرة ، خلال تلك الأيام ، تحدث علناً وبالتفصيل عن موقفي مما جرى وتقييمي لأسباب ما حدث .

لكنني رأيت ضرورة للإشارة إلى أن المؤامرة الانقلابية قد هُزمت من داخل البلد ومن خارجه . لم يكن ممكناً أن يحدث ذلك لولا التغييرات العميقة في البلد وفي علاقاته الدولية . وبعد كل شيء ، فإن ذلك قد تم بدون مشاركتي .

لهذا أعلنت بكل وضوح في مقابلة تلفزيونية في 1 أيلول/ سبتمبر ، عشية

افتتاح الجلسة غير العادية لمؤتمر نواب الشعب :

« لن أقدم استقالتي . سيكون عملاً لا أخلاقياً ، حتى لو لم تؤخذ وجوه أخرى بعين الاعتبار . لن أسمح لنفسي ، كشخص وكمواطن ، أن أنسحب الآن في هذه المرحلة الصعبة جداً التي تتطلب اتخاذ قرارات قد تحدد ما إذا كان المسار الذي بدأناه عام 1985 سيُحافظ عليه . لذا لم أقدم استقالتي . أما بالنسبة للمؤتمر ، فليناقش هذه المسألة . سوف أجد ما أقوله ؛ لدي أمور أقولها للمؤتمر » .

مؤتمر نواب الشعب

الوضع يتطور بسرعة بالغة . ليس أمامنا وقت حتى لإدراك كل ما يجري . يمكن القول إننا في يوم واحد نعيش عقوداً . هذا ينطبق أيضاً على تطور الوضع في الجمهوريات . كان هناك ، أكرر القول ، فارق دقيق جداً في المواقف التي اتخذتها هذه الجمهوريات ، لكن « اللجنة » لم تنجح في جرها إلى مصيدة مؤامرتها . لكن وكنتيجة للانقلاب برزت بوضوح ميول انفصالية . بعض الناس تبنوا فكرة أنه لمقاومة تحولات مفاجئة في المركز يجب قطع الروابط مع الاتحاد .

لكن ، ورداً على خطر الانهيار المشوش كلياً ، برز ميل آخر وأصبح واضحاً فوراً ـ هدفه وقف التفكك . كان علينا بذل جهود هائلة والعمل بكل عزم .

الآن بات واضحاً ، بغض النظر عن وفرة الآراء المنتشرة ، الميل لدعم الاتحاد والحفاظ على اقتصاد سوق واحدة .

في الوقت نفسه ، يجدر ذكر أن التصريحات التي سُمعت مراراً خلال جلسات مجالس السوفيات الأعلى للجمهوريات ، لم تكن دائماً تعكس مزاج كل السكان . في تلك الأيام العصيبة بتنا مقتنعين بأن غالبية الشعب حساسون جداً من خطر انهيار الاتحاد . وعلى خلاف القوميين والملكيين ، فإن الأغلبية كانت تنظر إلى تحقيق الاستقلال باعتباره أساس اتحاد جديد لدول ذات استقلال وسيادة حقيقيين. في تلك اللحظة الخطرة لدولتنا المتعددة الجنسيات بدا المواطنون من

قوميات مختلفة متحمسين لحاجة التشبث بعضهم ببعض . وكان لهذا أثر حاسم في عملية التوفيق بين مواقف الجمهوريات عشية المؤتمر الاستثنائي لنواب الشعب في اتحاد الجمهوريات السوڤياتية الاشتراكية .

الإعلان المشترك ، من قبل رئيس اتحاد الجمهوريات السوڤياتية الاشتراكية وقادة الجمهورية - إعلان «10 (11) + 1»[1] - تمت صياغته الحرفية في يوم واحد ، وقد أقول في ليلة واحدة ، قبل أن يبدأ المؤتمر أعماله . كنا نعمل عليه حتى آخر لحظة. نازارباييف تلا أمام المؤتمر نصاً كانت التصحيحات الأخيرة عليه مكتوبة بخط اليد . لم يقتصر العمل على إعداد هذا الإعلان على الجمهوريات التسع التي شاركت في عملية نوڤو - أوغاريڤو إلى جانب الرئيس ، بل شاركت فيه أيضاً أرمينيا وجورجيا .

رأينا أن أهم ما في هذا الإعلان حقيقة أننا نتوجه إلى الناس باقتراحات تتعلق بالمسائل الأكثر ضغطاً وإزعاجاً . كان رأينا أن لا نسمح للمؤتمر بالتحول إلى ما يشبه « دكاناً » للكلام البرلماني . كان البلد يتطلع إلى قرارات . هذا ما دفعنا لاتباع هذه الطريق غير المألوفة: التقدم بإعلان . وقلنا للنواب : الآن فكروا به ، وفكروا قليلاً بالمستقبل .

بالطبع سبّب ذلك انزعاجاً في البداية ، لكن في النهاية ، كان علينا أن نقتلع أنفسنا من الوضع الناتج عن المؤامرة ، لا أن نكتفي بالثرثرة .

لدى المؤتمر الآن فرصة لإظهار إحساسه بالمسؤولية حيال مصير البلد . فلو لم يوافق على الاقتراح لكان أظهر للشعب كله أنه ميت .

دعا الإعلان إلى إقرار معاهدة لاتحاد دول ذات سيادة ، دون أي تأخير .

وكنا قد سجلنا في الإعلان المبادىء الأساسية للمعاهدة الجديدة مع كل الصفات المميزة للاتحاد . وكانت تشترط وجود مدى اقتصاد واحد ، قوات مسلحة مشتركة وإصلاح أوضاع هذه القوات ، ودعت إلى تأكيد كل الالتزامات

---

(1) قادة إحدى عشرة جمهورية ورئيس اتحاد الجمهوريات السوڤياتية الاشتراكية وضعوا مسودة الإعلان . عشرة جمهوريات أعلنت رسمياً موافقتها عليه .

الدولية وإصدار إعلان يتعلق بحـريات الفـرد وحقوقه .

انعقد المؤتمر في منـاخ صدمـة عامـة ، وكان هـو نفسه تعبيـراً عن هذا المناخ . ومع ذلك أثبت أنه جدير بمهمته . وبعد نقاشات حادة تم التوصل إلى اتفاق بشأن ترتيب الأولويات .

كانت هناك لحظة وصلنا فيها إلى حائط مسدود . لذا وضعت المسألة بكل صراحة على الوجه التالي : المؤتمر قد استنفد إمكانـاته ، وإذا كانت القضيـة هكذا سيكون علينا بكل وضوح البحث عن آلية أخرى لاتخاذ القـرارات التي ينتظرها الناس ، لأن الناس ما عادوا قادرين على الانتظار أكثر .

في النهاية ، اتخذ المؤتمر قرارات هامة ، لكن ذلك لم يتم بسهولة . جو المؤتمر تغير كلياً يوماً بيوم . ويمكنني القول إنه خلال الأيام الثـلاثة تغيـر كل شيء . عهد جديد وحياة جديدة .

خلال الأسابيع العديدة الماضية كان الناس يقررون مصيرهم ، ليس فقط في الصدامات البرلمانية والعلنية بين الآراء في المهرجانات ، لكن أيضاً ، ولسوء الحظ ، عند المتاريس . مأساة حصلت ، ملطخة بالدم . ما حصل كان درساً قاسياً جداً لنا جميعاً . بإمكان كل شخص رؤية الطبيعة الدرامية للوضع الذي وجد البلد نفسه فيه كنتيجة لمحاولة الانقلاب ، التي نفذت في لحظة لم يكن يفصلنا عن توقيع معاهدة لاتحاد دول ذات سيادة ، غير يوم واحد . كان من شأن المعاهدة إتاحة إمكانية تعزيز التفاهم والتعاون . الآن أيضاً خسرنا الوقت لحل المشاكل الاقتصادية الحيوية. التوتر الاجتماعي في البلد كان في حده الأقصى . لكن ، وفي الوقت نفسه ، فإن ما حدث أكد ، بما لا يقبل أدنى شك ، بأن ما كنا نفعله منذ 1985 وفّر الظروف الوقائية والـوقائـع الجديـدة في البلد مما جعـل المؤامرة محكومة بالفشل منذ اللحظة الأولى لبدايتها .

في رد على سؤال وجه إليّ في المؤتمر ، قلت : بقدر ما أن السؤال يتناول الالتزام بسياسة التغيير الثوري في كل أوجه الحياة في مجتمعنا ، فإنكم تنظرون إلى غورباتشوف نفسه . لكن في حين ما يزال ملتزماً كلياً بخياره الرئيسي منذ 1985 ، فإن غورباتشوف قد تغير ؛ لقد فهم وأحس بعمق بأخطائه سـواءً في التكتيكات أم في أساليب العمل. إحدى هذه الأخطاء كان عدم إدراك أن اللحظة

قد حانت للبدء بسرعة بتحرير المجتمع من الآلية التي تدعم النظام الاستبدادي . ولم يكن قادراً خلال وقت متسع على تأكيد سلطته لتوحيد القوى الديمقراطية الجديدة التي كان يمكن أن تتحمل مسؤولية الحفاظ على استمرارية البيرويسترويكا .

مجتمعنا في حالة هيجان قصوى الآن . يريد أن يفهم كلياً ما حصل . ما كانت أسباب ما حصل ؟ ما الذي يجب فعله حتى لا يتكرر حدوث شيء كهذا ؟ ما هو طريق الخروج من الوضع الذي نشأ ، وأين المؤسسات والأشخاص الذين سيتحملون المسؤولية في هذا الوقت العصيب جداً ؟ هذه هي الأسئلة التي تهيج الناس الآن . وهي كانت السبب الفعلي للدعوة لعقد الجلسة غير العادية لمؤتمر نواب الشعب . وللإعلان الذي وضع من قبل رئيس البلد وكبار قادة جمهوريات الاتحاد .

أقدّر عالياً حقيقة أن أغلبية نواب الشعب ، رغم أنهم عبّروا عن تنوّع كبير في الآراء ، تعاطوا مع تقييمنا للوضع بروح مسؤولية عالية ، ودعموا مبدئياً الإعلان .

لكني لا أستطيع الموافقة مع تلك الخطابات التي وُصف فيها الإعلان بأنه يتعارض مع دستور وقانون البلد ، وأكثر من ذلك ، عومل تقريباً وكأنه انقلاب آخر . ردي كان بسيطاً : محاولات تقديم الأعمال الهادفة للدفاع عن الديمقراطية وضمان اتخاذ الخطوات الفورية لإنقاذ البلد ، وكأنها نوع من « مكيدة سوداء » ضد الشعب ، ومحاولات وصف الأشخاص المنتخبين شرعياً ومدعومين من قبل ملايين الناخبين وبرلمانات الجمهوريات بأنهم « دجالون » . . . هذه المحاولات غير جائزة ويجب رفضها بكل عزم .

مدى سخف هذا الكلام يظهر في حقيقة أن الرئيس وقادة الجمهوريات قدموا «الإعلان» إلى المؤتمر ، أعلى هيئة دستورية في سلطة الدولة . لقد توجهوا إلى المؤتمر وإلى سلطته الدستورية ، لا إلى جهة أخرى ، فهل هذا السلوك يشبه سلوك متآمرين ؟ .

والجدير بالاهتمام أيضاً أن أشخاصاً من أقصى اليمين وآخرين من أقصى

اليسار اتفقوا على انتقاد الإعلان . كان أمراً مذهلاً ملاحظة ذلك . لكن في النهاية قام المؤتمر بالشيء الصحيح وفتح باباً إلى المستقبل ، وكان ذلك مؤشراً لبدء فترة انتقالية صعبة .

من الممكن ، بالطبع ، إيجاد عيب ما في القرارات المتخذة ، وقد اشتكى المحامون من الطريقة التي تم فيها النقاش . لكن لم يكن هذا هو الأكثر أهمية .

إننا نعيش في وقت يتطلب اتخاذ خطوات غير عادية والموافقة على قرارات غير عادية . ففي وضع أوصل خلاله الانقلاب البلد إلى حافة انهيار لا يمكن ضبطه كان الأمر ذو الأهمية الجوهرية هو أن قادة إحدى عشر جمهورية رأوا ضرورة اللقاء وخرجوا بمواقف متفق عليها بخصوص المشاكل الأساسية في حياة المجتمع ، وحصلوا على دعم المؤتمر .

كان واضحاً لي ولقادة الجمهوريات أن إعادة توطيد إدارة البلد تتطلب وجود جسم ذي سلطة ، يكون قادراً ليس فقط على اتخاذ قرارات بل أيضاً ضمان تنفيذها على الأرض في كل البلد . لهذا السبب اقترحنا أن على المؤتمر تشكيل مجلس دولة للفترة الانتقالية يضم أرفع مسؤولي الجمهوريات .

نقاش حاد جداً تطور في المؤتمر حول اقتراح يدعو لإقامة مجلس ممثلين ، نوع من مجلس تشريعي للفترة الانتقالية . جرت نقاشات جدية وقُدمت اعتراضات. وقد أخذنا ،نحن واضعي« الإعلان »، ردود الفعل هذه بعين الجدية ووصلنا إلى استنتاج بأن فكرتنا قابلة للتنفيذ ، ليس عبر مجلس الممثلين وإنما عبر السوفيات الأعلى حسب معادلة كانت مكتوبة في معاهدة الاتحاد الجديد ، وتشترط وجود مجلسين ، أحدهما مجلس الجمهوريات ، وقد لُحظت مصالح الأقاليم والجمهوريات التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي سابقاً . أكثر من ذلك سيكون لكل جمهورية صوت واحد في المجلس الأعلى ، مجلس الجمهوريات الذي سيكون أرفع مقاماً من المجلس الآخر .

أبلغت هذا الرأي المتوافق عليه إلى النواب مشدداً أنه على هذا الأساس يمكن إيجاد جسم قادر على التعاون بفعالية مع مجلس الدولة . بكلام آخر ، في هذه الحالة لن نخرج عن إطار عملية نوفو ـ أوغاريفو ، لكن في الوقت نفسه ،

سيكون لدينا برلمان مختلف نوعياً بالضرورة قادر على التجاوب مع حاجات الفترة الانتقالية .

الأمر الأكثر أهمية الآن هو التحرك بسرعة . وكان رئيس الوزراء الروسي ، إيڤان سيلاييف ، هو الذي ذكّر المؤتمر ، بأن هناك مشاكل عاجلة مرتبطة بإمدادات الأغذية ، الاستعدادات لفصل الشتاء ، فرض القانون ، وبالوضع المالي ـ وكلها تتطلب عملاً متفقاً عليه .

إذا نجحنا في تنظيم عمل مشترك بأشكال جديدة لنباشر العمل مع هيئات جديدة وأشخاص جدد ، عندها سيدعمنا الغرب . الغرب يسعى الآن لمعرفة مع مَنْ عليه التعامل . لهذا السبب ، بالإضافة إلى الحاجة لإجراءات داخلية ، يجب التعاطي مع كل المشاكل دون أي تأخير .

مرة أخرى ، خلال المؤتمر ، شددت بقوة على الحاجة لحلّ عاجل لمسألة نظام دولتنا . فإذا لم نحل ذلك لن نكون قادرين على حلّ مسائل أخرى ـ اقتصادية ، سياسية ، اجتماعية ، علميّة ، اثنية وغيرها . أنا مقتنع بذلك . في استفتاء آذار/ مارس عبّر الناس عن إرادتهم وصوتوا لصالح صيانة وتجديد الإتحاد . وخلال مسار عملية نوڤو ـ أوغاريڤو وصلنا إلى معادلة ـ اتحاد دول ذات سيادة ـ لكن هذه المعادلة باتت الآن بحاجة لتفسير جديد .

دعونا ، قلتُ ، نجعل الاتحاد اختيارياً بشكل حقيقي ، بحيث يتناسب ومصالح الجميع . فلنتركه يوفر إمكانية إقامة روابط فدرالية في مسائل محددة ، وروابط كونفدرالية في حالات وترابطية في حالات أخرى . المعادلة ـ اتحاد دول ذات سيادة ـ توفر فرصة أخذ كل شيء بالحسبان . إذا قمنا بذلك ، إذا دعمَ المؤتمر المقترحات الواردة في الإعلان يكون قد أدى دوره الكامل في هذه اللحظة التاريخية الحرجة .

إلى حد ما كانت علامة فارقة ، بل نقطة تحول : فالأمر الأساسي والأكثر أهمية هو أن موقف الرئيس وقادة الجمهوريات حظي بموافقة الأغلبية الساحقة من النواب . الحصيلة النهائية للمؤتمر كانت « رزمة » قرارات تنظم حياة الدولة خلال الفترة الانتقالية ، وتوجد أساساً للإستقرار . هناك اتفاق بين الجمهوريات

والاتحاد بأن التعاون سيُبنى على مستوى جديد من قبلنا كلنا وبشكل مشترك .

لهذا ، وفي اختتام المؤتمر ، قلت إني راض بما تم إنجازه . رغم أنه مرت لحظات ، أقول بكل صراحة ، ظننت فيها أننا لن ننجح في الوصول إلى النتيجة المنطقية .

الأيام والأسابيع التي يمكن تسميتها تاريخية بكل معنى الكلمة ، لا تمر كثيراً في الحياة السياسية . والبلد كان قد مرّ بلحظة كهذه ، وكانت مؤشراً على بداية طور جديد في عملية تطورها المستمرة منذ ألف عام .

أنا على يقين ، بل ومقتنع تماماً بأن المجتمع الدولي سوف يتعامل مع اتحاد دول ذات سيادة ، مع بلد تتعايش فيه دول وجمهوريات حرة ديمقراطية وعشرات الجنسيات والقوميات والمجموعات الإثنية ، بشكل طوعي وبحقوق متساوية ـ بلد تتواجد فيه جنباً إلى جنب أكثر الحضارات تنوعاً وعملياً كل الديانات المعروفة ، وتتفاعل لتخلق حضارة فريدة وكينونة روحية .

الديمقراطية الـ « أورو ـ آسيوية » الكبيرة ستصبح واحدة من دعائم العالم الجديد وأمنه ، وأيضاً من دعائم تقارب قارتين لبناء نظام عالمي عادل . كل ذلك أمامنا بالطبع ، علينا العمل بإصرار وتماسك واضعين ذلك الهدف نصب أعيننا .

إعلان حقوق وحريات الفرد ، الذي أقره المؤتمر ، والوثائق التي تحدد الخطوط العامة للفترة الانتقالية ، والمبادىء التي تؤسس الاتحاد الجديد ، تنطلق كلها من نقطة الإقرار بأن حرية الفرد وشرفه وكرامته تمثل أعلى القيم في مجتمعنا . وقد أصبح ذلك الأساس الأخلاقي ، والأساسَ القانوني ، كما أريد التشديد ، لاتحادنا .

النقطة التي أوصل المؤتمر البلد إليها ليست ، بأي شكل ، شيئاً غير متوقع أو يتناقض مع الاتجاه العام للبيرويسترويكا . على العكس ، فالذي جرى هو إنطلاق متفجر لكل قوى التطور الاجتماعي ، الاقتصادي والقوى التي تراكمت خلال مسار البيرويسترويكا . منذ البداية الأولى للبيريسترويكا كانت فكرتنا الأساسية أن نبني على هذه القوى الكامنة .

بقيت هناك مشكلة ذات أهمية استثنائية ، الحل لما كان قد قُدّر سلفاً بنتجة المؤتمر . في ذهني مشكلة جمهوريات البلطيق ـ ليتوانيا ، لاتفيا ، واستونيا ـ التي أعلنت أنها لا ترغب بالتوقيع على معاهدة الاتحاد الجديد وأنها تريد ترك الاتحاد .

هذه المشكلة نوقشت في اليوم التالي على المؤتمر ، في الإجتماع الأول لمجلس الدولة . مدركاً الوضع التاريخي والسياسي الفعلي الذي كان قائماً قبل انضمام ليتوانيا ، لاتفيا واستونيا إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية ، اعترف مجلس الدولة باستقلالها وكلف وفداً رسمياً مطلق الصلاحية بإجراء مفاوضات وحل كل المشاكل المعقدة المرتبطة بتأمين حقوق المواطنين ، وأيضاً المشاكل الاقتصادية ، السياسية ، العسكرية ، الحدودية والإنسانية وغيرها .

من وجهات النظر السياسية والعملية كان واضحاً أن الأحداث كانت تقود باتجاه انسحاب الجمهوريات الثلاث من الاتحاد . والتطورات الأخيرة سرّعت هذه العملية .

يجدر بي القول إني قد أُغرقت فعلياً في كمّ هائل من البرقيات الواردة من دول البلطيق . فبعد كل شيء هناك مليونان ونصف مليون من أصل سبعة ملايين نسمة ، هم تعداد سكان الجمهوريات الثلاث ، لا ينتمون إلى السكان الأصليين . وفي حال ظهرت المشاعر المتطرفة ، وهناك دلائل على وجودها ، وإذا بدأت بالضغط للتنفيس وطرد الأقليات ، عندها سيكون أمامنا وضع خطير جداً . والآن ثمة نقاش يأخذ مكانه هناك حول قوانين المواطنية . وبعض الأشخاص يتحدثون عن تقسيم المواطنين بين فئات عدة مختلفة . وهذا يسبب ذعراً في البلد وهو خطير بالفعل .

بعد القرارات المتخذة من قبل مجلس الدولة أجريت محادثات مع رايويتيل وغوربونوف (زعيمي استونيا ولاتفيا) وشددت عليهما أن يوليا هذه المسألة الكثير من الاهتمام . وعلى أي حال ، يبدو أن مواطني دول البلطيق قد بدأوا مؤخراً بفهم أفضل للوضع ولمسؤولياتهم الخاصة . فبرغم كل شيء ، إننا ننوي الاستمرار بالعيش معاً ، للعيش بسلام مع بعضنا البعض .

حتى بداية عام 1992 ، لا ننوي تغيير أي شيء في تعاوننا وفي علاقاتنا الاقتصادية ، بما في ذلك الجانب المالي . مثل غيرها من الجمهوريات ، فإن لاتفيا ، ليتوانيا واستونيا مهتمة بالحصول على مصادر اقتصادية من أجزاء أخرى من الاتحاد . والمناطق الأخرى في الاتحاد لديها اهتمام مشابه حيال العلاقات مع دول البلطيق . كان هناك سبب جيد ليأخذ مسؤولون من دول البلطيق دوراً في لجنة غريغوري يافلينسكي المكلفة بإعداد معاهدة اقتصادية . في المستقبل ستركز علاقاتنا على تلك المعاهدة وعلى اتفاقيات بشأن مسائل محددة ترتبط على وجه التحديد باستخدام المرافىء والاتصالات ، وجود القوات العسكرية ، الشبكة الكهربائية وغيرها .

أنا مقتنع بأننا قادرون من خلال مسار المفاوضات على تقرير كل شيء كما يجب . ونحن نتوقع تعاطياً بنّاءً من قبل قادة دول البلطيق ـ خصوصاً منذ امتلكت لاتفيا ، ليتوانيا واستونيا، وضعية المشاركين المستقلين في «CSCE» (مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا) كما أصبحت أعضاءً في الأمم المتحدة . ومن الواضح أن درجة أكبر من المسؤولية باتت تقع الآن على عاتق دول أخرى ، وبالدرجة الأولى الدول الأوروبية للطريقة التي ستسوي فيها هذه الدول أوضاعها في المجتمع الدولي ، وبالأخص مصير الأقليات الكبيرة الحجم في كل من دول البلطيق . أي تراجع عن المعيار المنصوص عليه في شرعة باريس بهذا الخصوص سيثير ردة فعل غير مستحبة إطلاقاً ، ليس فقط في هذه الدول نفسها ، بل في روسيا والاتحاد أيضاً .

من داخل إطار عمل «CSCE» سيتم بالتأكيد إيجاد نظام ما لضمان حقوق كل المواطنين . ولكن هناك أمور ذات أهمية أساسية ، وفي مقدمتها عدم المساس بالحدود ، علينا التحرك باتجاه ضمان بقاء الحدود مفتوحة ، لكن علينا عدم التلاعب بالحدود نفسها ، لأن ذلك قد يؤدي إلى عواقب وخيمة .

سوف نستمر بالتعاون مع دول البلطيق . موقفنا بنّاء إلى أقصى حد : برغم كل شيء يبقى الناس الذين يعيشون في الجانب الآخر من الحدود الجديدة ، قريبين منا وكانت تربطنا بهم روابط طوال قرون . آمل أن يسير كل شيء في علاقاتنا مع هذه الدول بشكل جيد .

الخطوط العامة لإقامة اتحاد جديد

انتهى المؤتمر لكن العمل المرتبط بإقامة اتحاد جديد بشكل جوهري بين جمهوريات ذات سيادة ، كانت تؤلف اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية السابق ، كان قد بدأ للتو . من جديد هناك نقاشات وصراعات بين وجهات نظر عديدة . وقد احتدم النقاش بالأساس بين مؤيدي الفدرالية ، الكونفدرالية والوحدة الترابطية . في البداية كان صعباً حتى مجرد اقتراح أي شيء من شأنه توحيد كل أطراف ذلك النقاش . مرة أخرى قدمت المعادلة ـ أن علينا إقامة اتحاد جمهوريات ذات سيادة ، على افتراض أن ذلك يتيح إمكانية تأسيس توازن جديد بين القوى الجابذة (القوى الجاذبة إلى المركز) والقوى النابذة (القوى الطاردة من المركز) ؛ وسيّمكن ذلك من إقامة دولة اتحاد جديد .

اتحاد كهذا ، وكما أراه ، سيضمن التعاون الذي يؤمن مصالح الناس الذين يشكلونه . أنواع متنوعة من الروابط يمكن أن تنوجد بينهم . معادلة اتحاد جمهوريات ذات سيادة توفر إمكانات لفتح طرق لحل كل المشاكل ، في حين تؤخذ بعين الاعتبار آراء مواطني كل جمهورية . بصرف النظر عن ذلك ، فإنها ستتيح فرصة إيجاد الطريق الأمثل لدمج سيادة الأجزاء وسيادة الكل .

الاتحاد الجديد يجب، ودون أي شك، أن ينوجد على أساس مبادىء الاستقلال ووحدة الأراضي له نفسه وللدول التي تنتمي إليه. ويجب ضمان حق الانضمام إلى الاتحاد وحق الانسحاب منه .

بهذه الطريقة فإن معاهدة الاتحاد المستقبلي سترسم الخطوط العامة لشكل

كيان كبير جديـد ، ليست المسألة مجرد الاستمرار بعملية نوفو ـ أوغاريفو . خلال وضع مسودة المعاهدة ستؤخذ بالحسبان الحقائق الجديدة التي أصبحت جليـة بوضوح وفرضت وجودها بالارتباط مع أحداث 18 ـ 21 آب/ أغسطس . من بين هذه الحقائق الفهم ، الذي بدأ يترسخ بسرعة منذ أيلول/ سبتمبر ، بأن امتلاك الاستقلال ليس عذراً لتحطيم الروابط التاريخية عشوائياً ، بل قاعدة لإقامة اتحاد وطيد لدول ذات استقلال وسيادة حقيقيين .

لروسيا بشكل خاص دور كبير ومسؤول تلعبه . في 10 أيلول/ سبتمبـر عقدت اجتماعاً مع بوريس يلتسين بحثنا خلاله المشـاكل المـرتبطة بـالضرورة الملحة لوضع نسخة جديدة لمعاهدة الاتحاد . وفي 16 أيلول/ سبتمبر كانت مسألة الاتحـاد المستقبلي موضـوع نقاش بين أعضـاء مجلس الدولـة . ثماني جمهوريات أخذت موقفاً إيجابياً في ذلك الحين ـ اتحـاد روسيا ، بيبلورسيا ، اوزبكستان ، كازاختسان ، تركمنستان ، أذربيجان ، وطاجكستان .

الوضع في أوكرانيا يظل معقداً . أنا من المؤيدين لصيانة وتطور أوكرانيا في إطار حدودها الحالية . لا أستطيع أن أتخيل أن الأمر قد يصل إلى حد انفصال أوكـرانيا . أكثـر من ذلك ، أراهـا تلعب دوراً لا غنى عنه في تشكيـل الاتحاد الجديد . أنا على ثقة بأن معادلة اتحاد جمهوريات ذات سيـادة ، ستمكننا من تقريب وجهات النظر حيال كل شيء .

عامل مهم في ضمان وحدة أراضي الاتحاد سيكون وجود قوات مسلحة واحدة ، سيطرة مركزة فعالة على القدرات النووية ، وسياسة دفاعية مشتركة . سيؤمن ذلك ضمانة أمن جدير بالثقة لكل الجمهوريات وللاتحاد ككـل . وفي الوقت نفسه ، سيكـون قادراً على الاستجـابة للمبـادىء الأساسيـة للسياسـات الدولية الحالية .

قادة معظم الجمهوريات توصلوا إلى اتفاق من حيث المبدأ ، ليس فقط على الحاجة لوحدة القوات الاستراتيجية بل القوات المسلحة عموماً . أما بالنسبة للسيطرة على الأسلحة النووية فليس من داعٍ للقلق ، لأنها ستظل بيد المركـز والرئيس بصفته رئيس الأركان الأعلى .

هناك ، بالطبع ، حاجة لإصلاح عسكري عميق . سيكون هناك وزير مدني للدفاع ورجل عسكري لتولي رئاسة الأركان المشتركة أو العامة . ستكون هناك بعض التغييرات التنظيمية ، وبالتعاون مع الجمهوريات سيكون هناك تخفيض لحجم قواتنا . مع الأخذ بعين الاعتبار أمكنة تمركز الوحدات العسكرية ، هناك حاجة لآلية تفاهم متبادل وتعاون مع الجمهوريات . المشاورات بهذا الخصوص تتم بالفعل .

عامل آخر مهم في دعم الاتحاد الذي نبنيه ، يتمثل بالمعاهدة الاقتصادية . مسودة لهذه المعاهدة جرت دراستها في مجلس الدولة في 16 أيلول/ سبتمبر .

معاهدة اقتصادية هي ما نحتاجه بشكل عاجل ؛ فمن شأنها تحفيز العمل على معاهدة الاتحاد . المعاهدة الاقتصادية تسجل دعم الجمهوريات للحفاظ على سوق واحدة ، وتحدد معايير وآلية عمل المدى الاقتصادي الواحد ، بما يتيح الإسراع في تعافي الاقتصاد من الأزمة . العمل على المعاهدة الاقتصادية دخل مرحلته النهائية ، وتشارك فيه وفود من الجمهوريات ذات صلاحيات كاملة .

الوضع يبدو على هذا الشكل : الجمهوريات متحمسة لإنجاز المعاهدة الاقتصادية ، وهذا أمر مفهوم . حتى روسيا لا تستطيع تدبير أمورها بدون التعاون مع جمهوريات أخرى ، والجمهوريات الأصغر بحاجة أكثر لهذا التعاون . الطريقة التي بُني عليها الاقتصاد ، بقاعدة مواد أولية واحدة ، بوسط علمي واحد ، البيئة نفسها ، شبكات الطاقة والروابط الاقتصادية المتنوعة ـ كلها تفرض منطق التعاون .

في الشهور القليلة المقبلة ستكون علينا مهمة القيام بخطوات رئيسية هدفها إعادة الاستقرار لأوضاعنا المالية ، عبر توفير الظروف الملائمة لنشاطات المقاولة ، وتحويل ملكية الدولة إلى القطاع الخاص بصرف النظر عن ذلك ، سيتم العمل ، بالتأكيد ، على وضع مبادىء سياسية مشتركة في مجال الضرائب ، القطاع المصرفي ، والمشاكل الاجتماعية وغيرها .

بعض الجمهوريات تثير مسألة امتلاك عملتها النقدية الخاصة . وهي تقول إن ذلك سيوفر لها الحماية من ميول اقتصادية سلبية وستحمي أسواقها

المحلية . اقتصاديونا يـرون أن إدخال عمـلات نقديـة قوميـة لـن يسبب مشكلة جدية ، خصوصاً إن جعل « الروبل » قابلاً للتحويل سيضبط الاندفـاع لامتلاك عملات منفصلة . العديد من المؤسسات المالية والاقتصادية الأجنبية تحذر من مغبة خطوات كهذه لأنها ستسبب جدياً بتعقيد آلية عمل السوق . في أي حال ، افترض أن الروبل سيلعب دوراً قيادياً ، إذ لا يمكن إغفال ما لجمهورية مثل روسيا من حجم وأهمية .

الآن علينا التحرك على طول مسارات متوازية : إيجاد معاهدة اتحاد جديد واتحاد اقتصادي يرتكز على المبادىء التي ستساهم بالتقدم نحو سوق حـرّة . موقف الناس حيال هاتين المسألتين تغير مؤخراً نحو الأفضل . وهذه دلالة ذات أهمية استثنائية .

الاتجاه الثالث للعمل على اتحاد جديد هو في إيجاد بنية حكومية اتحادية ملائمة للظروف التي تغيرت . وقد أحرزنا بعض التقدم في هذا المجال بالفعل . الفرصة تنفتح أمامنا لتجاوز الأزمة العامة . لقد حزنا على مصداقية أكبر مما كان لدينا قبل الانقلاب .

عقب الموافقة على إعلان « 10 (11) + 1 » تم اتخاذ بعض الخطوات العملية . فبما أننا قمنا بحل مجلس الوزراء ، قررنا الإبقاء ، بالإضافة إلى وزارة الخـارجية ، على وزارة الشؤون الـداخلية ووزارة الـدفاع ولجنـة أمن الـدولـة كمؤسسات اتحادية .

ثم أعدنا بناء وزارة الثقافة الاتحاية بشكل جديد . عقدت اجتماعات مع مسؤولي وزارات التربية في الجمهوريات ، وكانوا كلهم مصرّين بجهودهم على إقناعي بضرورة تنسيق العمل في الجمهوريات في إطار تربوي عام واحد لكل الاتحاد . تلقيت رسالة من وزراء الزراعـة ، في كل الجمهوريات عملياً ، تقترح أن علينا إقامة بعض البنى الاتحادية للأمور الزراعية . المسؤولون عن سكـك الحـديد في البلد أصـروا على إبقاء وزارة اتحـادية . مـطالب مشابهـة قُـدمت بخصوص البيئة والتعاون العلمي والتكنولوجي . أكاديمية العلوم تكلمت بوضوح لصالح الإبقاء على منظمة مشتركة للأبحاث الأساسية .

خلال الفترة الانتقالية يجب على الهيئات ، التي أُقيمت على أساس قرارات مؤتمر نواب الشعب لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، أن تعمل . وهي بدأت بالعمل فعلياً . وأنا أُولي اهتماماً أساسياً لمجلس الدولة . وهو سيجتمع بانتظام ، ليس أقل من مرتين في الشهر ، وسيكون مسؤولاً عن اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية الرئيسية . تطبيق هذه القرارات إلزامي في الجمهوريات المشاركة ، ويمكن مراقبة تنفيذها بشكل فعّال .

اللجنة الاقتصادية ، التي تضم ممثلين عن جمهوريات الاتحاد السابق مخولين كامل الصلاحيات ، هي الهيئة التي ستضمن تحقيق المعاهدة الاقتصادية . هنا ستتجمع خيوط ضبط الاقتصاد وتطبيق البرامج الاقتصادية .

نحن عازمون على إقامة آلية ملائمة للمضي في تنفيذ الإصلاحات ، وأيضاً إقامة هيئة خاصة للعلاقات مع المستثمرين الأجانب . بتلك الطريقة سيكون أسهل على مؤسسات الاتصال مع شركائها في الخارج .

من المتوقع بعد التوقيع على معاهدة الاتحاد ، أننا سنحدد بالضبط ما ستتولى الجمهوريات إدارته بشكل مشترك . اللجان المناسبة لشؤون الطاقة ، النقل ، الاتصالات وغيرها ستُشكل على أساس التساوي .

هذه هي الخطوط العامة العريضة للاتحاد الجديد . والعمل اللازم للبناء لن يكون شيئاً بسيطاً .

إننا نبلغ مرحلة جديدة في تطور دولتنا المتعددة الجنسيات .

بلدنا والعالم الخارجي

في الأيام الأولى عقب فشل الانقلاب ، واجهنا سؤال حول ما إذا كان علينا عقد مؤتمر موسكو لمراقبة « البعد الإنساني » لمعاهدة هلسنكي ، المقرر في أيلول/ سبتمبر أو أن نقوم بتأجيله ؟ في ذلك الحين كان ما يزال هناك الكثير من الأشياء غير الواضحة . كنا نحضّر لمؤتمر نواب الشعب لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، ونزيل الآثار التي خلّفتها المؤامرة .

لكننا أيضاً أدركنا الأهمية الضاغطة التي اكتسبها موضوع حقوق الإنسان مؤخراً بفعل المؤامرة الانقلابية . ففي المحصلة الأخيرة ، كان الناس الذين تصدوا للمتآمرين يدافعون بالضرورة عن حقوق وحرية الإنسان ، التي كُرست بصعوبة بالغة في سنوات البيريسترويكا .

استشرنا سفراء الدول المشاركة في مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ، وحصلنا منهم على رأي مصرّ بتهذيب ، ـ الأوروبيون ، الأميركيون والكنديون كانوا كلهم إلى جانب المضي في عقد المؤتمر . وقد جعلونا ندرك أنهم ينظرون إلى هذا المؤتمر باعتباره واجباً عليهم لإظهار تضامنهم مع الديمقراطية المنتصرة .

افتتح المؤتمر في موعده ، في العاشر من أيلول/ سبتمبر في جو احتفالي وودود جداً . كان عرضاً رائعاً لما كانت التغييرات العميقة قد أحدثته في الطبيعة الإجمالية للعلاقات الدولية .

كنا قد اقترحنا عقد مؤتمر في موسكو في وقت سابق ، يرجع إلى أيام بداية

البيريسترويكا . افترضنا أن ذلك يوفر دفعاً إضافياً لعملية تجديد مجتمعنا وإدخال الديمقراطية إليه .

في ذاك الوقت كان لدى الغربيين الكثير من الشكوك بشأن ما إذا كانت موسكو تستحق « خدمة » عقد مؤتمر فيها : قالوا إن الوضع هناك فيما يتعلق في حقوق الإنسان ما يزال بعيداً عن كونه مُرضياً ، رغم أن البيريسترويكا كانت بالفعل منطلقة .

بصعوبة كبيرة نجحنا في تجاوز هذه المواقف ، بدرجة أولى من خلال قيامنا بخطوات عملية لإغناء حياة مجتمعنا بقيم مشتركة بين كل البشر ، وبتقريب تشريعاتنا من كل المعايير الشرعية المقبولة عموماً .

وبعد إجهاض المؤامرة الانقلابية لم يبق أي مجال للشك . بلدنا قد تغير . أصبح جزءاً عضوياً في مسار معاهدة هلسنكي .

في الخطاب الذي ألقيته في افتتاح مؤتمر موسكو ، شددت على نقاط معينة مرتبطة بضمان حقوق الإنسان في كل أنحاء بلدنا الواسع في الظروف التي استجدت في أعقاب فشل الإنقلاب . وسوف أوجزها :

« عرفنا دائماً ، لكننا الآن بتنا نعرف أفضل ، أنه ليس كافياً إدعاء حقوق الفرد أو إعلان المرء دعمه للإعلان العالمي بهذا الشأن . لتصبح حقيقة واقعة فإن حقوق الإنسان يجب أن تكون مؤمنة بإجراءات تشريعية واقتصادية .

« أحداث آب/ أغسطس زادتنا اقتناعاً من جديد بالحاجة لضمانات مادية وقانونية لحرية الإعلام على المستويين القومي والدولي » .

« أياً كانت الظروف يجب ألا يكون الناس عرضة للإدانة لأنها تحمل آراء معارضة . نلتزم بثبات بهذا الموقف » .

« تحول الاتحاد يتطلب موقفاً يقظاً ومسؤولاً بدرجة عالية حيال الأقليات القومية في كيانات الدولة الجديدة . عملية الإندماج على مستوى الدولة وعلى المستوى القومي ، سواء في حالة جمهورية تنضم إلى الاتحاد السوفياتي ، وبالأخص في حالة جمهورية تنسحب من اتحاد الجمهوريات السوفياتية

الاشتراكية ، يجب ألا تترافق مع أي خرق لحقوق الأقليات. تجربتنا خلال السنوات الأخيرة تجبرنا أن نكون حذرين تجاه هذه المشكلة على وجه التحديد . لكنها ليست تجربتنا وحدنا » .

انعقاد منتدى دولي تمثيلي في موسكو ، أتاح لي فرصة الاجتماع بأصدقاء وشركاء قدامى ، والبحث معهم في مسائل تقلقنا وتقلقهم . الجزء الأكبر من الوقت كُرّس لمناقشة الوضع في الاتحاد وخططنا للإصلاح . لكن بالتأكيد ، شددت على أننا نعتبر جهودنا لحل مشاكلنا الداخلية هي مساهمتنا الأكبر أهمية في السياسات الدولية .

المسار الأصلي لسياستنا الخارجية يظل هو نفسه . في إعلانهم أعاد الرئيس وقادة الجمهوريات التأكيد على الإيفاء بكل الالتزامات الدولية . لم يكن هناك أي خلاف في الرأي بيننا عند بحث هذه النقطة . اقترحت أن تكون الصياغة أكثر دقة ـ أن نقول بالتحديد إننا سنكون مخلصين لالتزاماتنا في مجال نزع الأسلحة والعلاقات الاقتصادية الخارجية .

الجمهوريات التي أعلنت رغبتها بتشكيل الاتحاد الجديد أكدت التزامها بسياسة « التفكير الجديد » وبكل المعايير والالتزامات المقبولة عموماً ، بما فيها تلك المنصوص عليها في ميثاق هلسنكي النهائي وشرعة باريس . وستقوم هذه الجمهوريات بإيجاد آلية فعالة قادرة على ضمان إطار عام متفق عليه حول القضايا الأكثر أهمية ، مثل الأمن الدولي ، ونزع الأسلحة والتنمية .

عقب هزيمة القوى المحافظة فإن على التعاون البنّاء مع الولايات المتحدة الارتقاء إلى مستوى جديد . في حوارات مع جايمس بيكر أكّدت بشكل قاطع تعهداتنا والتزامنا بالنهج الذي نتبعه جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة . وأشرت أيضاً إلى إننا بتنا نرى إمكانات جديدة للعمل المشترك . حتى عندما كانت لدينا المؤسسات السابقة كنا قادرين على بلوغ معاهدات واتفاقيات بعيدة الأثر ، لكن الفرص المتاحة الآن أكبر بكثير . على وجه التحديد ، قد نتعاون مع الولايات المتحدة ، كما اتفقنا مع الرئيس بوش في نوفو ـ أوغاريفو ، في محاولة تسوية الوضع في الشرق الأوسط ، من خلال التحرك باتجاه عقد مؤتمر سلام .

هنا ، حققنا بداية جيدة .

الاحتمال الفعلي بتحويل البلد إلى اتحاد دول ذات سيادة ، من شأنه أيضاً تغيير الوضع في أوروبا بشكل جذري . يجب عدم نسيان ، أن الاتحاد السوفياتي ، حتى في شكله السابق ، كان في السنوات الأخيرة عاملاً قوياً في تحفيز الأمن الأوروبي ، والتعاون والتفاهم المتبادل . لم يكن المبادىء بفكرة البيت الأوروبي المشترك فحسب ، بل أيضاً كانت له مساهمة عملية كبيرة جداً في التغييرات الإيجابية التي تأخذ مكانها فوق الأراضي الأوروبية .

الاتحاد الديمقراطي للدول ذات السيادة سيتبنى كل شيء إيجابي كان الاتحاد السوفياتي قد قام به على الساحة الدولية ، وسيعمل بفعالية أكبر في كل المجالات التي تنبأت بها شرعة باريس على طريق أوروبا جديدة . لهذه الغاية ، من الضروري أن نعمل معاً لإيجاد المسار الصحيح ، بحيث لا نخدم القوى الانفصالية والقوميين المتعصبين ، ولا نعرقل تشكيل أوروبا الجديدة التي بدأت الآن لتحل مكان أوروبا الأحلاف العسكرية ، المواجهة والعراقيل التي تعيق حرية تبادل السلع ، المعرفة وإنجازات العلوم والتكنولوجيا والثقافة .

من جهتهم فإن الأوروبيين وكل المجتمع الدولي ، الذين استفادوا من درس مأساة يوغسلافيا ، لا يخفون حقيقة أنهم مهتمون بالحفاظ على دولة واحدة متماسكة على سُدس الكرة الأرضية ، كإحدى الضمانات الأساسية للنظام العالمي . ليست دولتنا فقط هي التي تربح من ذلك بل كل المجتمع الدولي . صحيح أن هناك أصواتاً مسموعة تطالب بوجود اتحاد موحد ليكون الثقل الموازن لألمانيا الموحدة . لكننا نرى المسألة بشكل مختلف : هاتان الدولتان تستطيعان تقديم مساهمة هائلة في قضية توسيع وتعميق التعاون في أوروبا وفي العالم ، وستكونان قادرتين على توجيه تعاونهما الوثيق إلى قناة إيجابية بحيث يمكن تجنب الصدمات والتشويشات .

الحفاظ على بنى حكومية لدولة مشتركة والتعاون الوثيق مع الغرب والشرق، ضروريان بلا ريب لتحويل بلد من معسكر ذي صفة عسكرية إلى دولة سلمية مزدهرة . ليس فقط لأن العسكرة تُنضب الاقتصاد ولا فقط لأنها تهيىء

لكارثة بيئوية ، بل لأنها أيضاً تهدد الديمقراطية سياسياً ، مادياً ومعنويا . لهذا السبب فإن نزع الصفة العسكرية أحد أهم الوسائل لتأكيد حقوق وحرية الإنسان . سوف نقاتل لهذه لغاية في بلدنا وفي أي مكان آخر بالمزيد من الفناعة والإصرار .

انسجاماً مع هذه القناعة أشرت بوضوح كلي ، سواء في حوارات خاصة أو علنية ، إلى أننا ما نزال نؤيد العمل بأسرع وقت ممكن لإبرام المعاهدة بشأن تقليص القوات المسلحة والأسلحة التقليدية في أوروبا ، ومعاهدة «START» بشأن تقليص الأسلحة الاستراتيجية .

من المستحيل الاندماج عضوياً في مدنية عالمية بدون قاعدة اقتصادية صلبة . الآن ، مع إزالة العوائق أمام مسيرة تغيير طبيعة اقتصادنا ، نستطيع التفرغ لهذه المهمة الصعبة إلى أقصى حد . التفكير الجديد ساعدنا على فهم أن الأساس الثابت للديمقراطية لا يكمن فقط في حقوق الإنسان وحريته المنصوص عليها في القانون ، بل أيضاً في الحرية الاقتصادية والسوق الحديثة المتمدنة . في هذا المناخ بالضبط يبرز نوع جديد من الناس ، يفكرون ويعملون باستقلالية ومستعدون لتحمل مسؤولية ما يحدث . إنهم هم الذين يشكلون الجزء الفاعل في المجتمع المدني ، القلب الذي تتشكل حوله العلاقات الجديدة .

لكن كل هذا ، وكما تظهر التجربة في كل أنحاء العالم ، يتطلب الوقت ، الكثير الكثير من الوقت . لكننا نقوم باختراق نحو مجتمع من نوع جديد بكل معنى الكلمة . لهذا فإننا بحاجة لدعم ومساعدة وتضامن . الأمر أكبر بكثير من مجرد مكافأة ما دام يتعلق ببلد يرتهن به تقدم ومصير العالم كله .

يمكن أن أضيف أن ما تم إنجازه خلال الأيام التي تلت هزيمة الانقلاب يمنحنا فرصة هائلة . وآمل أن يولي الغرب الآن المزيد من الاهتمام لما كنا قد قلناه مراراً وبإصرار بالدعوة لتعاون بنّاء وعملي مع بلدنا .

سنكون صُمّ بلا مبرر حيال تحدي الساعة والحقائق الجديدة . في حال ، آخذين بعين الاعتبار أننا كنا قادرين على توحيد وتحريك مصادر هائلة لحل النزاع في الخليج العربي « الفارسي » ، كنا غير قادرين على إيجاد جواب لأزمتنا ذات الأهمية العالمية والتي تحمل في ذاتها فرصة ضخمة .

الشيء الكثير يعتمد على كيفية تعاطي الاتحاد والجمهوريات المنتمية إليه خلال الفترة الانتقالية . بالنسبة لديوننا الخارجية وكل التزاماتنا الخارجية فقد تم التأكيد عليها . الشيء الوحيد الذي يجب تذكره هو أننا ، في المرحلة لحالية من الانتقال السريع إلى سوق حرّة وإجراءات إعادة الاستقرار ، بحاجة للتفهم من جانب الغرب ، خصوصاً أوروبا ، وبحاجة لاستعدادهم لملاقاتنا في نصف الطريق .

في الوقت نفسه كنا قد قلنا لشركائنا (وليكن هذا الكلام مسموعاً في بلدنا أيضاً !) أن العبء الرئيسي للمسؤولية والضغط الرئيسي للعمل الذي ينتظرنا يقع على عاتقنا لا على عاتق أي شخص آخر .

أبرز المشاكل في الاقتصاد الآن ، هي : الاستقرار المالي وتقليص ميزانية الدولة . في الوقت نفسه يجب اتخاذ إجراءات جادة لامتصاص كتلة النقد الموجود قيد التداول . على قاعدة الإعلان من قبل الرئيس وقادة الجمهوريات ، تأسست بالفعل الآلية للقيام بأعمال مشتركة ومنسقة خلال الفترة الانتقالية ـ لتأمين استقرار الحياة السياسية والاقتصادية وتسريع الإصلاحات الديمقراطية الجذرية . نهدف لجعل الروبل قابلاً للتحويل . ونحن نعمل على إجراءات عملية لضمان إمدادات الأغذية . وسيكون جزء كبير من عمل اللجنة الاقتصادية المشتركة بين الجمهوريات مخصصاً لتنظيم التعاون مع بقية العالم في مجال الاستثمار .

إننا مهتمون بتوفير ظروف طبيعية للمستثمرين الغربيين . لقد تحقق الكثير في هذا المجال ، وتم تمرير تشريع وهناك عروض عديدة للتعاون .

نود أن تكون كل قضايا التعاون مع العالم الخارجي مستندة على آلية عملية لإدارة مشتركة ، ستضمن الوجود الدائم للشريك والمراقبة المتبادلة . عندها لن تنضب المصادر المخصصة .

من خلال الإطار العام للاتحاد فإننا نقترح أيضاً تحقيق تنسيق أوثق لسياسة التجارة الخارجية ، بحيث يصبح لدينا إطار مشترك للعلاقات مع المؤسسات والشركات الأجنبية .

التغييرات والعناصر الجديدة التي يتم إحداثها في سياسة تجارتنا

الخارجية ، مرتبطة بتوسيع قدرة الجمهوريات على التعاطي مع الأسواق الأجنبية . وفي الوقت نفسه ، الحفاظ على سياسة مشتركة للتجارة الأجنبية .

باختصار ، سنقوم بتحسين الظروف لتأمين تنفيذ أسرع وأكثر تصميماً للاستنتاجات التي تم التوصل إليها في إطار « مجموعة السبعة » لمساعدة الاتحاد كله على إعادة تنشيط الاقتصاد في شروط جديدة بشكل جذري .

ما يزال أمامنا تجاوز الشتاء المقبل . بالنسبة للوقود والطاقة فإننا نستطيع تدبيرها بجهودنا الخاصة ، لكن بالنسبة لإمدادات الأغذية فإننا نحتاج الدعم ، وبالأخص الإمدادات الطبية . سوف ندفع بشكل طبيعي مقابل ما سنحصل عليه ؛ سيكون تعاوناً على أساس المنفعة المتبادلة .

سحق المحاولة الانقلابية ونتائج المؤتمر يجب أن تزيل كل الشكوك من جهة الدول الأجنبية بما يتعلق بطبيعة مستقبل التطور لبلدنا . يجب أن يكون واضحاً لكل الذين يتحملون مسؤولية في السياسة الدولية كيف عليهم التصرف الآن . حتى الآن قاموا بعمل جيد ، لقد نجحوا في فتح فترة جديدة في حياة دولنا وشعوبنا . الآن كلنا نحتاج للقيام بجهد كبير آخر لضخ الأوكسجين في عملية إعادة تكوين بلد كبير . ستكون لنتائجها تأثير حاسم على مستوى العالم . بلدنا الآن بحاجة ماسة لدفعة أساسية للتغلب على الصعوبات المميزة فيما يختص بتوزيع الغذاء ، تفعيل الصناعات الخفيفة ، الانتقال إلى روبل قابل للتحويل ، وغيرها من المشاكل المرتبطة بالانتقال إلى اقتصاد السوق .

هنا ، نحن نعتمد على الدعم من خلال التجاوب السريع مع حاجاتنا . ما تبقى ـ عندما نمتلك المعاهدة الاقتصادية التي ستضع البلد على طريق السوق المفتوحة ـ سيتقرر على أساس التعاون الطبيعي مع دول غربية ، لتحقيق مشاريع وبرامج رئيسية ، وعلى قاعدة الإندماج العضوي للاقتصاد السوفياتي في اقتصاد العالم .

ننوي إقامة مركز خاص يتولى تنسيق جهودنا وتعاوننا مع الغرب في تدريب مدراء للعمل في سوق حرة . تلقينا الكثير من العروض بهذا المجال لكنها كلها غير متناسقة إلى حد كبير . نود أن نقوم ، إلى جانب الأميركيين وشركاء آخرين ،

بتأسيس جامعات خاصة لهذه الغايات .

السياسة الخارجية ليست نهاية بحد ذاتها . اليوم ، كما السابق ، هدفها تأمين المصالح ذات الأهمية الحيوية لبلدنا ولدولتنا . لكن فهمنا لهذه المصالح ولسبل تأمينها قد تغير جذرياً . اليوم ما عدنا نعتبر أنفسنا منعزلين عن بقية العالم ، وبالتأكيد لسنا في أي حالة عداء تجاهه . والعالم نفسه ينظر إلينا بطريقة مختلفة .

فرصة تاريخية لاحت وعلينا الاستفادة منها : علينا أن نجعل اندماج هذا البلد داخل مجتمع الدول المتمدنة أمراً لا رجوع عنه . لا أعرف كم سيكلف تنفيذ هذه المهمة ، لكنني واثق بأن « السعر » لا يمكن مقارنته بما دفعناه كلنا ثمناً للمواجهة . المنافع ستكون هائلة وعالمية .

لا أرى طريقاً غير الديمقراطية

إنه أمر مدهش ، لكن كل يوم منا. تلك الأيام الثلاث في آب/ أغسطس يبدو أحياناً كأنه أسبوع . إنني أنهي ترتيب ما كنت قد قلته وفكرت به منذ العودة من الجنوب إلى موسكو ، ولم ينقض سوى شهر على بداية الانقلاب . شهر واحد ، لكن كم حصل وكم تغير منذ ذلك الحين .

المحاولة الانقلابية قد سُحقت . الديمقراطيون يحتفلون بالانتصار ، لكن الحياة تتطلب عملاً ، تتطلب تفكيراً مركّزاً وأعمالاً غير تقليدية . الناس ساخطون لحقيقة أن حياتهم اليومية قاسية جداً وأنه لا توجد تغييرات نحو الأفضل بعد . هنا يكمن الخطر الأكبر ، وهو بالضبط ما أراد منظمو الانقلاب استغلاله . لهذا لا يوجد وقت نضيعه . علينا أن نتصرف ، نندفع إلى الأمام في عملية الإصلاح ونعطي الناس الحرية الاقتصادية وعندها سيدركون بأنفسهم إمكاناتهم . أمامنا الكثير لنتعلمه . علينا أن نتعلم إدارة المسائل السياسية الاقتصادية وحياة الدولة . وفي هذا المجال ما يزال الديمقراطيون ضعفاء .

أمامنا كلنا الكثير لنتعلمه ، كأن نتعلم الحكم من خلال إطار الديمقراطية والتعددية السياسية والاقتصادية بالتحديد .

وإلا فإن صبر الناس سينفذ . عندها سيكون هناك هيجان ، لا يمكن السيطرة عليه ، للسخط والقلاقل ـ وعندها ما علينا غير توقع الأسوأ . وليس أقل خطراً على تحقيق خططنا ، ستكون ردة الفعل الناتجة عن إرهاق الناس ، انتشار الإحباط واللامبالاة وفتور الشعور .

يمكن تقسيم صرّة المشاكل الحادة ، التي نواجه الآن ، إلى ثلاث فئات : في المقام الأول ، المشاكل الآنية ـ لتأمين الغذاء للسكان ، لتنظيم فرع الاقتصاد المرتبط بالوقود والطاقة ليكون قادراً على العمل بفعالية ، وتلبية حاجاتنا من الأدوية . الفئة الثانية من المشاكل تتعلق بإيجاد الظروف لتطوير القطاع الخاص وتسريع الإصلاحات الاقتصادية . فقط من خلال العمل المتوازي على حل هاتين الفئتين من المشاكل ، سنكون قادرين على تجاوز الشتاء والربيع ، وامتلاك التأثير المرغوب لتحقيق الإصلاحات ، والبدء بانتشال أنفسنا من الأزمة .

الأمر الأكثر أهمية الآن ، هو كيف سنتجاوز الربيع وكيف سنتجاوز الشتاء ، وكل ما تبقى ، بعيداً عن هاتين الفئتين من المشاكل ، ينحصر في مسألة التقدم بسرعة أكبر باتجاه سوق حرّة وتفعيل نشاط المقاولة .

لكن ، شرط نجاح الإصلاحات هو أن يؤمن الشعب بها . بدون الشعب فإن الإصلاحات تفتقد أرضيتها ، وبدون المشاركة الفعالة للشعب فإن كل شيء سيبقى رسالة ميتة (الرسالة التي تُعاد إلى مرسلها بسبب نقص أو خطأ في العنوان) . أو ، من الناحية الأخرى ، قد تحدث حركة ارتجاعية عنيفة ومفاجئة في حال تردّت الأوضاع أكثر . وسيكون ذلك لكمة ثقيلة تُوجه إلى الديمقراطية .

أتذكر كيف أحاط بي الناس، عندما كنت عائداً إلى مكتبي بعد اجتماعي في الكرملين مع سفير الولايات المتحدة . بدأنا نتبادل الحديث ، وكان مثيراً للدهشة أن أياً من الناس المحيطين بي لم يتذمر من الصعوبات . قالوا إن هناك ، بالطبع ، الكثير من الصعوبات ، لكن الناس مستعدون لتحمل الاختبار ودعم سياسة الإصلاح حتى النهاية .

لدينا مسؤوليات جسيمة . وهذا ليس مجرد تعبير يُستخدم ، أو كليشيه . أسمع دائماً الأجانب الذين التقيهم ،يقولون : لديكم كل شيء ـ شعب متعلم وموارد مادية هائلة ـ وبإمكانكم أن تصبحوا بلداً غنياً . أجل ، يجب أن نصبح بلداً غنياً . وأكرر : لدينا كل ما نحتاجه لتحقيق ذلك . يجب أن نتغير ، وعندها سنعيش بشكل مختلف .

أكثر من أي شيء آخر ، يشغلني الآن، التفكير كيف سيعيش أطفالنا

وأحفادنا وهؤلاء الذين هم اليوم ما بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر . هنا يمكنني أن أرى معنى جهودي ، لأنه في النهاية كل ما بدأناه هو لأجلهم . لسنا خائفين من الصعوبات . نعرف أننا نواجه الكثير من المشاكل المعقدة والصعبة . لقد وضعنا لأنفسنا هدفاً ، بدأ يتحقق اليوم بالفعل ، بأن نجعل الشعب يشارك في العملية الديمقراطية ويشعر نفسه كشعب حقيقي . حصل ذلك بالفعل . وهذا إنجاز للبيريسترويكا .

لكن ما يجب أن يتغير أيضاً هو نمط حياتنا ومستويات المعيشة . أتمنى كثيراً أن يشعر الناس الذين أعطوا الكثير جداً لهذه الأرض ، أن زمانهم قدحان ـ زمان سعيد .

الآن ، وفي الوقت الذي يتم فيه تقرير مستقبل بلدنا العظيم ، فإن آخر ما يشغلني هو التفكير بنفسي . لهذا كانت لحظة صعبة ، وفي الوقت نفسه كان سهلاً عليّ اتخاذ قرار عندما تقدم المتآمرون بإنذارهم . لقد اتخذت قراري منذ فترة طويلة . بإمكان المتآمرين أن يتصرفوا دون الاهتمام بالوسائل ، أما أنا فلا أستطيع تحقيق ما أصبو إليه بوسائل أخرى . . . خيار الديمقراطية يفرض عليّ عدم استخدام وسائل أخرى إطلاقاً . وإلا كان محتماً تكرار الماضي ، تكرار كل ما كان قد أدنّاه . ومهما ستكون المشاكل معقدة فإن حلها يجب أن يكون ديمقراطياً . لا أرى طريقاً غير الديمقراطية .

ملحق (أ)

(نسخة طبق الأصل للتصريح الذي سجله ميخائيل غورباتشوف على شريط فيديو في « الداتشا » في فوروس ليل 19 ـ 20 آب/ أغسطس) .

أريد كل ما سأقوله عبر كاميرا الفيديو ، أن يكون معروفاً من قبل نواب الشعب لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ، السوفيات الأعلى والرأي العام السوفياتي العالمي .

بعد الاستماع إلى المؤتمر الصحفي الذي عقده ياناييف وأعضاء آخرون في ما يُسمى لجنة الطوارىء ، أدركت أن الرأي العام في بلدنا والرأي العام العالمي قد ضُللا .

ما حصل هو بالأساس خدعة ذات عواقب وخيمة . بزعم أن الرئيس بحالة صحية سيئة وغير قادر على القيام بواجباته ، قام نائب الرئيس بالاضطلاع بمهام رئيس اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية . وعلى ذلك الأساس تم إصدار مراسيم واتخاذ قرارات ، من بينها قرار فرض حالة الطوارىء في البلد مع كل ما يستتبعها .

أُعلن أن كل ما قيل بشأن حالتي الصحية هو ملفق . وهكذا ، وعلى أساس كذبة ، يتم تنفيذ انقلاب مضاد للدستور . الرئيس الشرعي للبلد مُنع من القيام بمهامه . أكثر من ذلك ، البيت في الكريميا حيث أمضي عطلة والذي كان مقرراً أن أتوجه منه اليوم للتوقيع على المعاهدة في العشرين ـ بالواقع إننا في العشرين من الشهر ، وكان عليّ أن أقوم برحلة بالطائرة في ليل التاسع عشر ـ لكن البيت

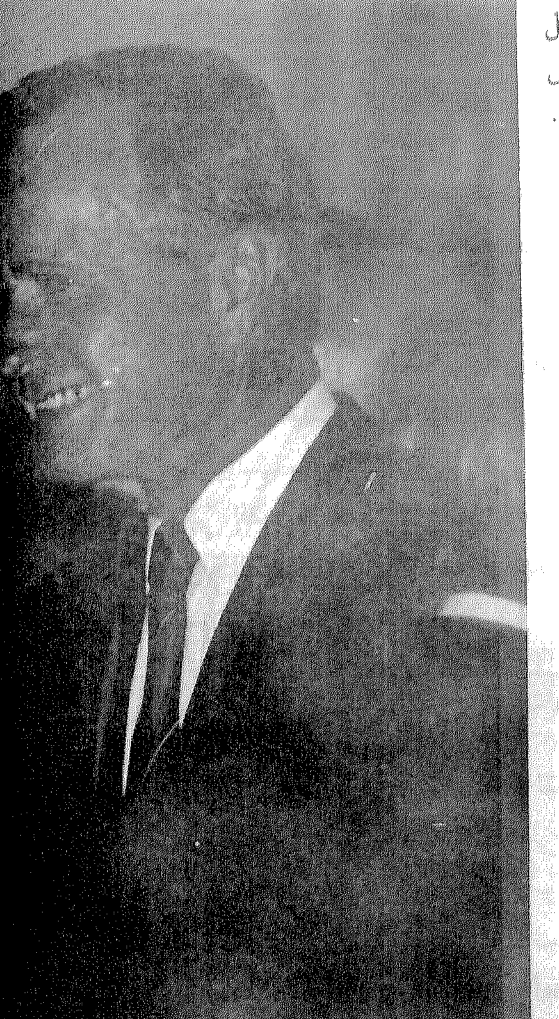
محاصر بالقوات وأنا قيد الاعتقال . إني مُجرّدٌ من نظام الاتصالات الحكومية ، والطائرة التي كانت هنا معي وطائرات الهليكوبتر قد تم إبعادها . وليست لدي أدنى فكرة أين هي . كل تلفوناتي قُطعت . وليس لدي أي اتصال مع العالم بالخارج . أنا معتقل ولا يُسمح لأحد بمغادرة الداتشا . أنا محاصر بالقوات براً وبحراً على السواء .

لا أعرف ما إذا كنت سأنجح في إخراج هذا ، لكني سأقوم بكل شيء لتأمين وصول هذا الشريط إلى الحرية ، كما يقولون . عليكم الاستنتاج بأن الشعب والبلد والرأي العام العالمي قد ضُللوا . خدعة وقحة تُنفذ أمام عيوننا ، ويمكنني القول ، إنها تنفذ بسخرية فاضحة ، بل وبسعادة . وقد أدت حتى الآن إلى حالة الطوارىء التي عارضتها عندما أرسلوا مندوبين إليّ ، والذين عرفت بأمر زيارتهم ليّ عندما ظهروا بالفعل في الداتشا بدون أي إخطار مسبق، برغم أني كنت قد تكلمت مع يانابيف في منتصف يوم الأحد . سألني عن موعد رحلتي في التاسع عشر ليكون في لقائي .

الأكثر خطورة هي حقيقة أن ما تقوم به لجنة الطوارىء الآن يقود إلى تصعيد الصراع الأهلي والمواجهة ، وربما إلى حرب أهلية . كنا قد شعرنا بذلك بالفعل قبلاً ، في كانون الأول/ ديسمبر ، كانون الثاني/ يناير ، شباط/ فبراير وفي آذار/ مارس وحاولنا أن نحوّل كل شيء باتجاه آخر ـ باتجاه الاتفاقية . حتى أننا بدأنا نرى الثمار الأولى لتلك الاتفاقية . أجل ، لم يكن هناك الكافي منها . أجل ، كان يمكن أن تكون مختلفة . أجل ، على الذين في السلطة العمل وحل المشاكل ، لكن يجب علينا البقاء في مسار الاتفاقية ، لا أن نفرض على المجتمع صراعاً أهلياً يمكن أن يعيد البلد إلى الوراء ويؤدي إلى تبعات خطيرة على البلد ، والشعب والعالم بأشمله .

هذا ما أردت قوله وأسألكم أن تقيّموه بالشكل المناسب .





نقطة تحول خلال حفل استقبال أثناء قمة موسكو الرئيس بوش يمزح مع يلتسين ومعي .



المؤتمر الصحفي في 2 آب/ أغسطس مع الرئيس بوش في ختام زيارته .



أيلول/ سبتمبر 1991 ، أتحدث في مؤتمر نواب الشعب .





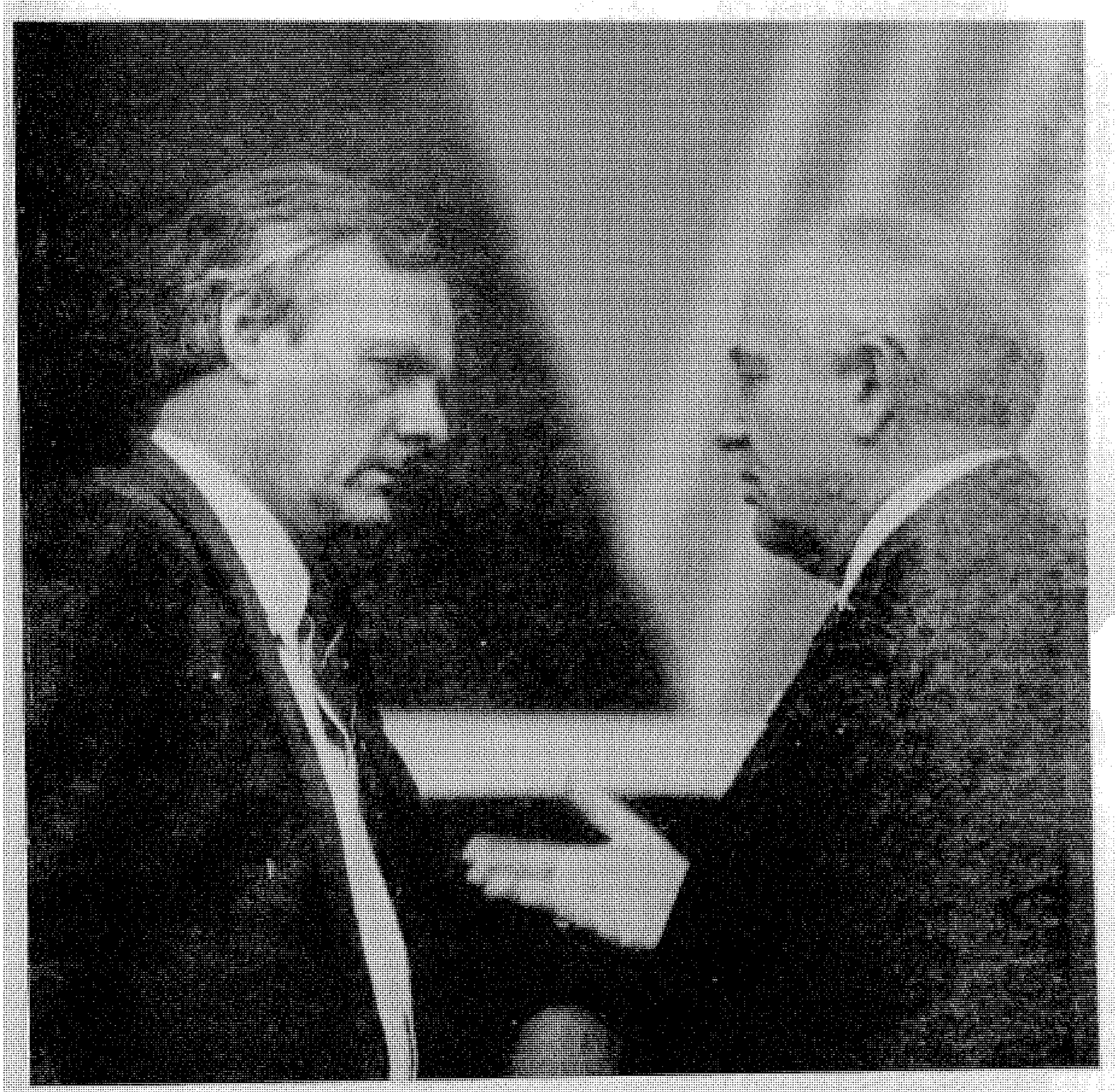
اجتماع مجموعة السبعة ، في منتصف تموز/ يوليو 1991 . كان أول اجتماع للسبعة زائد واحد . التقيت قادة الدول الصناعية السبع للمساعدة في دمج الاتحاد السوفياتي داخل الاقتصاد العالمي .

في قمة مجموعة السبعة (من تحت ، من الشمال إلى اليمين) : الرئيس بوش ، أنا ، رئيس الوزراء جون مايجور ، الرئيس فرانسوا ميتران ، والمستشار هيلموت كول . (من فوق) الرئيس المفوض للسوق الأوروبية جاك ديلور ، ورئيس الوزراء جيليو اندريوتي ، برايان مولروني ، توشيكي كايفو وراوود لوبرس .

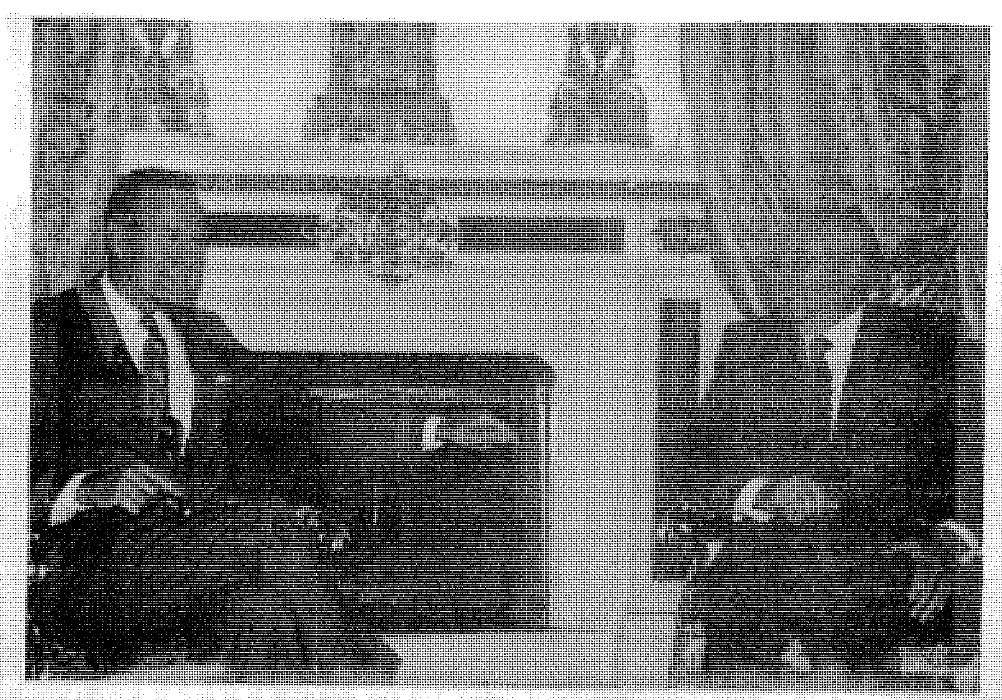


رئيس الوزراء ، جون مايجور وزوجته يستقبلاننا في 10 داونيغ ستريت ، بعد قمة مجموعة السبعة .





خلال المؤتمر الثامن والعشرين للحزب ، تموز/ يوليو 1990 ، أتحدث مع أناتولي سوبشاك رئيس سوفييات مدينة لينينغراد ، الذي ترك الحزب لاحقاً وأصبح أحد قادة حركة الإصلاح الديمقراطي .

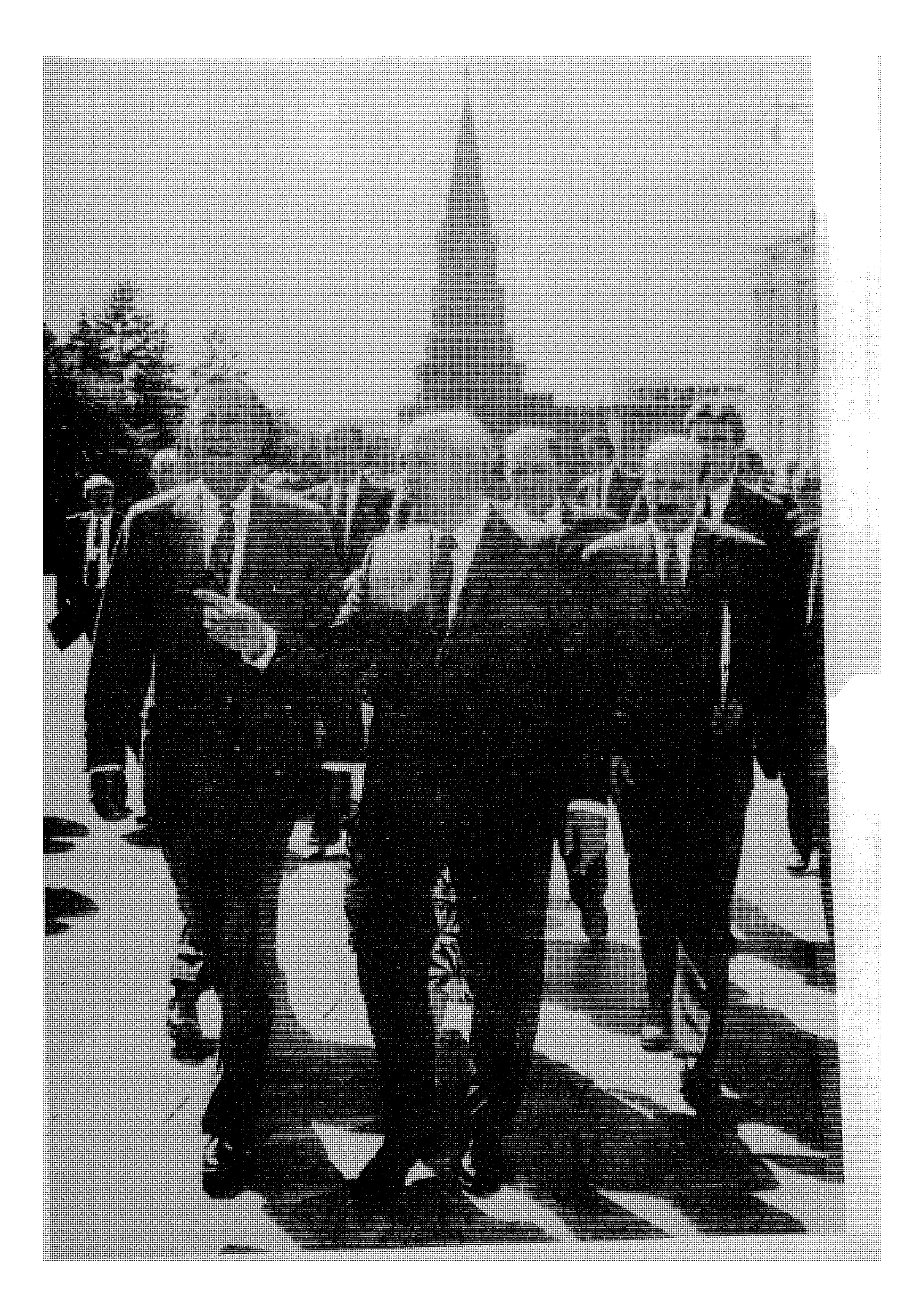


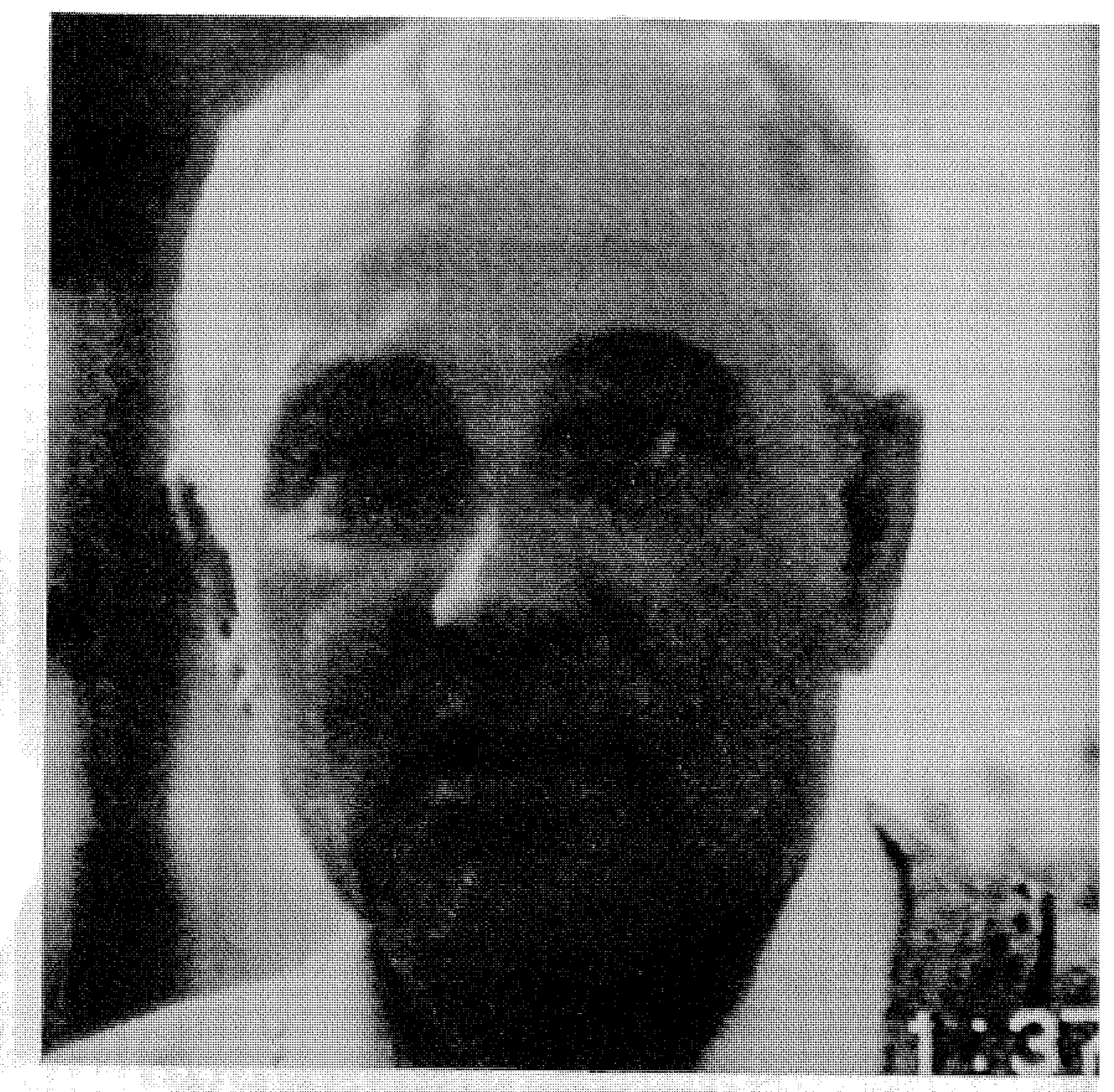
في الكرملين ، قبل محادثات القمة ـ انتهت القمة بتوقيع اتفاقية (START) .

قمة موسكو ، 31 تموز/ يوليو 1991 ، أرافق الرئيس بوش في جولة للتفرج على الكرملين ، قبل أقل من ثلاثة أسابيع على الانقلاب .

خلال الزيارة أمضينا يوماً من المحادثات غير الرسمية مع الرئيس بوش في نوفو ـ أوغاريفو قرب موسكو ، المكان نفسه الذي وضعنا فيه أنا وقادة الجمهوريات معاهدة الاتحاد .







الساعة الواحدة وسبع وثلاثون دقيقة فجر 20 آب/ أغسطس ، في الكريميا . هذه الصورة مأخوذة عن شريط الفيديو الذي سجلت عليه تصريحي .

ملحق (ب)

بيان الطبيب الشخصي لميخائيل غورباتشوف

بخصـوص التقـاريـر التي ظهـرت في وسـائـل الإعـلام ، بـأن م . س. غورباتشوف غير قادر على القيام بواجباته كرئيس لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية بسبب حالته الصحية ، أجد أن من واجبي المهني وواجبي كمواطن أن أصرّح بما يلي :

أنا الطبيب الشخصي لغورباتشوف منذ نيسان/ إبريل 1985 .

لم ألاحظ أي تغير أساسي في حالة ميخائيل غورباتشوف مؤخراً . لا أرى سبباً ، إلى حد ما يتعلق الأمر بوضعه الصحي ، لمنع م . س. غورباتشوف من القيام بالواجبات الملقاة على عاتقه .

أنا مستعد لمناقشة هذا الرأي مع أي لجنة أخصائيين مؤهلة ، سوفيـاتية أو أجنبية .

دكتور في الطب
اي. ايه. بوريسوف

91/8/19

По поводу появившихся в средствах массовой информации сообщений о невозможности выполнения по состоянию здоровья М.С. Горбачевым обязанностей Президента СССР считаю своим профессиональным и гражданским долгом заявить следующее.

Являюсь лечащим врачом М.С. Горбачева с апреля 1985 года.

В последнее время существенных изменений в состоянии здоровья Михаила Сергеевича не наблюдаю. Противопоказаний по состоянию здоровья для выполнения М.С. Горбачевым возложенных на него обязанностей не вижу.

Представленный вывод готов обсуждать с любой компетентной комиссией как советских так и зарубежных специалистов.

19.08.91 г. Доктор мед. наук [signature]

(И.А. Борисов)

ملحق (ج)
مقال الكريميا[1]

هناك سؤالان يشغلان البلد الآن . وهما محور تعليقات سياسية ، نقاشات مثقفين وجدل انفعالي داخل الحزب وخارجه . وهما حاضران دائماً في الصراع السياسي . البحث المضني عن إجابة عليهما يعكس حراجة الفترة الانتقالية التي يمر بها البلد .

الأول ، هل كان المجتمع بحاجة للبيـريسترويكا ، أم كانت غلطة مميتة ؟ ما هي أهدافها الحقيقية ؟ ما المقصود بتجديد الدولة ؟ هل كان ضرورياً البدء بعملية التحول الخطرة هذه ؟

الثاني ، كيف يمكن أن تُحقق أهداف البيـريسترويكا ، الآن وقد بدأت ؟ ما هي السياسة التي يجب اتباعها في وضعٍ يشهـد أزمة اقتصـادية ، عـلامات خطيرة على التفكك والتشوش والخوف من اليوم الآتي ؟

خوف الناس يزداد أكثر ، خشية أن تسير الأمور بالطريقة نفسها التي سارت عليها بعد ثورة أوكتوبـر ، خشية حـدوث تفارق بين الأهـداف الكبيرة والنتـائج التاريخية الفعلية . هل قد تقود البيـريسترويكا إلى وضع من النوع نفسه الذي عاشت فيه الأجيـال السابقـة ؟ في وضع يتـدهور فيـه مستوى المعيشـة بشكل مستمر ، يزداد قلق الناس : هل نسير في الطريق الصحيح ، نستخدم الوسائل الصحيحة ، نطبق الأساليب الصحيحة ؟ في تلك الأيام ، من العشرينات من هذا القرن ، بلغ الناس هذا الحد أيضاً ووجب اتخاذ خيار تاريخي لتحقيق المزيد من التقدم لبلدنا العظيم . كان هناك إحساس بأن على البلد اجتياز مرحلة صعبة ،

(1) كُتب قبل أيام من الانقلاب .

لكن أغلبية السكان الفاعلين كانوا قد بلغوا بالفعل قناعة بأن هذه المرحلة لا بد من اجتيازها في سبيل « مستقبل مشرق » .

لكن في تلك الأيام لم تكن لديهم خبرة ولا نتائج للاهتداء بها . بعد ثورة أوكتوبر وفي ظل حملة شعاراتها ، استمر الناس بالتحرك باتجاه أهدافها المعلنة لكن لم يبلغوها أبداً . ذلك هو ما يميز الوضع الحالي جذرياً . كنتيجة للغلاسنوست وكشف الحقيقة دخل إلى الذاكرة الاجتماعية الخوف من التغييرات الكبرى . الذين لا يدركون الحاجة الملحة للتحول ويعارضونه منذ زمن طويل يسعون ، لاستغلال ذلك . أولئك هم التقليديون والدوغماتيون ، ناس الماضي ، ذوو التفكير المقولب والرؤية الضيقة للأمور .

لكن بين أولئك الذين يدعون الناس للتوقف والتفكير ثانية ، ظهر أيضاً « يساريون » من تيار الستالينية الجديدة . وهم يطلبون من الناس أن يدعوا إلى وقفة ليتم استعادة النظام بواسطة وسائل ديكتاتورية ، من شأنها إزالة ، أو في أحسن حال تعليق كل الحقوق والحريات التي تم اكتسابها في مسار البيريسترويكا . ولحظة يُستعاد النظام ، يقولون ، يمكننا التقدم باتجاه اقتصاد السوق ، الديمقراطية وكل أنواع الحريات . وجهة النظر هذه تكتسب شعبية لأن الناس متعبون ومرهقون من انعدام النظام في الحياة ، من النواقص ، من اللايقين ، ويتوقون لمجرد الحصول على متنفس ، وقد لا يعارضون أن يبرز شخص ليعيد تنظيم الأمور من فوق .

الكثيرون قد يكونون على استعداد للتجاوب مع إغراء من هذا النوع .

في هذه التربة كانت الشعبوية تنمو . ويقوم بتخصيبها وبحماس دعاة الديكتاتورية والمدافعون عن الستالينية . بعض وسائل الإعلام ، التي تعمل في خدمة هؤلاء ، تقوم بتشجيع هذا التوق الضيق الأفق لتلك الفترة من التماسك عندما كان هناك ، حسب زعمهم ، كل ما يحتاجه الناس في حياتهم اليومية ، ليس الشيء الكثير ولا الأفضل لكنه موجود ؛ أما بالنسبة للحرية والديمقراطية فمن يريدهما عندما يلوح الفقر والبطالة ؟ المديح لبينوشيه وفرانكو بدأ يطلق بشكل جدي وعلني : سنوات قليلة من الديكتاتورية الحقيقية ، يقولون ، وبعدها

ستكون هناك سوق حرّة وديمقراطية وبطون ممتلئة .

هذه العدوى أصابت حتى العديد من الديمقراطيين الجدد ، بمن فيهم بعض المخلصين في قناعاتهم . وهم أيضاً يتهمون الرئيس بعدم الكفاءة ، بالتردد ، بكونه ناعماً جداً ، ويصرون على « ضرورة اتخاذ إجراءات » لكن عندما يقترح الرئيس بعض الإجراءات الحاسمة فعلياً ، لإعادة استقرار الاقتصاد وتحسين أوضاعنا المالية ، يجفل الشعبيون ، في المحافل السياسية وفي أروقة السلطات ، في المدن والجمهوريات ، خوفاً من احتمال تململ السكان ويحذرون من خطر وقوع اضطراب اجتماعي . لكن الكثيرين منهم منخرطون في السياسية ويعرفون الاحتمالات الفعلية والحالة الفعلية للأمور ؛ يجدر بهم إدراك أننا إذا لم نأخذ عدداً من الإجراءات القاسية وغير الشعبية بهدف تحقيق الاستقرار ، فسيكون علينا بدءاً من مطلع كانون الثاني/ يناير رفع الأسعار مرة إلى ضعفين أو ثلاثة . وسيبلغ التضخم مرحلة جديدة أكثر خطورة ، ستدفع باقتصاد البلد إلى مزيد من الفوضى .

رأيي الراسخ هو أن المشاكل لا يمكن أن تُحل إلا بطرق دستورية . هذا مصدر ضعف ، لكنه أيضاً مصدر قوة . القوة تكمن في حقيقة أن المجتمع والفرد ، بامتلاكهما حريتهما ، قد امتلكا إمكانية ممارسة الحقوق الديمقراطية عملياً ، لكن الضعف يكمن في حقيقة أنه عندما يسيء أناس استخدام هذه الحقوق ، فمن الصعب جداً العودة إلى أسلوب استخدام القوة ، حتى لو كان ذلك شرعياً ومبرراً ، هذه هي الطبيعة المحددة لعملية البيريسترويكا ككل . ليس الموضوع ما لدى الرئيس من صلاحيات بل هو مبدأ أخلاقي وسياسي . وبعد كل شيء ، كان كل شيء في بلدنا يتقرر أساساً باستخدام القوة . الحياة السياسية بُنيت على هذا الأساس : إذا كنتَ خصمي وكنتُ أنا في السلطة فيجب ، على أقل تقدير ، أن تُرسل إلى السجن . لكننا الآن قد أقرينا بشرعية التعددية في الاقتصاد وفي السياسية وفي كل الحياة العامة . لكن كل ذلك لم يصبح واقعاً بعد ، ويمر الآن بمخاض مؤلم جداً . لهذا هناك حاجة لاحتياط هائل من الإيمان والقناعة حتى لا نخرج عن السكة . أمر صعب للغاية لكنه ضروري اليوم .

المناورة لا غنى عنها بالنسبة لشخصية سياسية أو اقتصادية . لكن ذلك لا

يغير لا من الهدف ولا من العزم لتحقيق ما نصبو إليه وفق طرق دستورية . ولن يحيدنا عن هذا الطريق أي نوع من الضغط ، سواء من اليمين أو من اليسار .

طوال هذه السنوات كنا نختط لأنفسنا طريقاً عبر غابات أقيمت منذ وقت طويل ، والتي تكتسحها الآن نباتات شابة . إننا نبذل جهداً خارقاً لإبقاء الثورةالجديدة في مسار سلمي ، في بلد اعتاد على استخدام القوة وعلى الحكم القمعي . الآن ، أخيراً ، وجدنا مفهوماً كلياً لكيفية التحرك إلى الأمام . وهو بالضرورة يتألف من مثلث اتجاهات أساسية متداخلة ، قادرة وحدها على قيادتنا لتحقيق أهداف البيريسترويكا . وهي :

- إصلاح الدولة ؛
- إصلاح الاقتصاد ؛
- دخول البلد إلى السوق العالمية ، ومن خلال ذلك وأيضاً من خلال سياسة التفكير الجديد ، إلى الاتجاه السائد للمدنية العالمية .

بعد هذه الملاحظات التمهيدية أصل إلى الموضوع الذي حُدد في البداية .

إذن ، لماذا البيريسترويكا ضرورية ؟ هل كان ممكناً أن ندبر أمورنا بدونها أو بالإمكان تأجيلها الآن ؟ أغلبية الناس تبدو أنها الآن مقتنعة بأن لا مجال للعودة إلى الوراء . لكن هذه الأغلبية أيضاً لا تقبل بأسلوب إبدال النظام ذي القيادة المركزية بدرجة عالية - أسلوب يبدو متاحاً وقد تم اختباره في الغرب : إدخال النظام الرأسمالي إلى كل وجوه الاقتصاد . لكن كيف سنتحرك إلى الأمام ، وما هي الأشكال والطرق المتناغمة التي يجب تبنيها وتكون متلائمة مع فكرة البيريسترويكا والاتجاهات المحددة في المثلث ؟ .

واحد

البلد الآن على عتبة امتلاك بنية جديدة لكل من الدولة والمجتمع . الإصلاح السياسي أوصلنا حيث الدولة امتلكت ليس فقط شكلاً مختلفاً بل سوف تغير اسمها أيضاً . المجتمع يحرر نفسه بسرعة من الايديولوجيا . احتكار السلطة

من قبل حزب واحد تم استبداله بالتعددية . الغلاسنوست وحرية التعبير أصبحت مظهراً لا رجوع عنه في الحياة العامة .

الإصلاح الاقتصادي حتّم الانتقال إلى اقتصاد السوق على أساس تنوع أشكال وملكيات . هذان الإصلاحان فتحا الباب أمام البلد لدخول النظام الاقتصادي العالمي وفق « القواعد المشتركة للعبة » .

التفكير الجديد ساهم في تلك التغييرات في الوضع العالمي ، التي جعلت من الممكن ، على الأقل بالنسبة للمعالم المبدئية للأمن ، اتباع سياسة عالمية واحدة شاملة الإدراك . نادراً ما يسمع المرء الآن أحداً يتكلم عن خطر حرب عالمية .

هذه هي التغييرات الأكثر الأهمية والأكثر وضوحاً على مستوى تاريخي ، بعد ست سنوات من البيريسترويكا .

هل هي جيدة أم سيئة ؟

من بين التنوع الكبير من التقييمات ، فإن أغلبيتها نقدية وبعضها مؤذٍ ببساطة ، ومن بين الكمّ الهائل من الأفكار والمشاعر التي أثارتها البيريسترويكا في بلدنا وفي كل أنحاء العالم ، يمكن تمييز السؤال الرئيسي الذي يريدالجميع الإجابة عليه : هل البيريسترويكا تقدمٌ ثوري ينسجم مع الظروف الطبيعية لتطور بلدنا العظيم ، أم أنها كارثة على البلد ونهاية لتاريخه ؟

يجب عدم النظر إلى أي من هذه التقييمات بمعزل عن الزمن الفعلي الذي ظهرت فيه . فقد ظهرت خلال المسار الفعلي لعملية الإصلاح مع البيريسترويكا وكانت ردود فعل على تغييرات معينة وخطوات محددة أقدمت عليها السلطات .

نقطة الإرتكاز في مفهوم البيريسترويكا كان الاقتناع العميق بأننا ما عدنا قادرين على المضي بالعيش بالطريقة التي كنا نعيش فيها . كنت قد تحدثت مراراً عن ذلك ، ولا أنوي تكرار نفسي هنا . لم أندم أبداً ، ولا مرة ، على حقيقة أني كنت وراء إطلاق تحول حاد في حياة بلدنا . وما ظهر تحت الضوء ، من خلال الغلاسنوست، عن ماضينا أكد أن نظاماً تأسس وفق أحكام الطغيان والتوتاليتارية

ما عاد ممكناً تحمله أكثر ، ليس من وجهة نظر أخلاقية فقط ، بل أيضاً من نظر مصالح البلد الاقتصادية والاجتماعية الأساسية . هذا النظام قاد البلد بالفعل إلى درب مسدود وأوصله إلى حافة هاوية ، وقد استمر قائماً بالقوة ، بالأكـاذيب ، بالرعب ، واللامبالاة الاجتماعية ، وأيضاً بفضل حقن اصطناعية ، بذّرت الموارد وأضعفت الإمكانـات للمستقبل . لو حفظنا النظام القديم لعدة سنوات أخرى ، لكان هناك كل السبب للكلام عن نهاية تاريخ دولتنا العظيمة .

في أواخر السبعينات وأوائـل الثمانينـات كنا قـد بدأنـا نشعر بـالفعل أن الاقتصاد بدأ يعجز وينزلق إلى الـوراء . وكان الاقتصـاد يكبح التقـدم العلمي والتكنولوجي . وجد البلد نفسه في حالة إحباط متزايد .

النظام الستاليني التوتاليتاري البيروقراطي ، ومن خلال تركيز قوة ومصادر البلد الواسع ، جعل ممكناً تحقيق نتائج مهمـة في مرحلة معينـة . لكن خطوة خطوة كانت الجهود الاستثنائية تزعزع صحة البلد . بعد ستالين ظل نظام القيادة المركزي جداً الذي أوجده ، والذي كـان يستند على السيـطرة الكلية لملكيـة الدولة ، ظل قائماً كأساس للسلطة والإدارة .

النموذج النظري والعملي السابق للاشتـراكية ، الـذي فُرض على البلد لعقود عديدة ظهر أنه مفلس . الأزمة الحادة التي انزلقنا إليها لـم تكن أزمة لأية أجـزاء مميـزة في النـظام الاشتـراكي ، بـل أزمـة النـظام نفسـه لشيـوعيـة الغرف المغلقة .

لهذا كانت البيـريسترويكـا حاجـة حيويـة ؛ لـم تكن هناك طـرق أخرى لانتشال أنفسنا من الدائرة الضارة التي وقع فيها البلد .

عندما كنا نبدأ إصلاحاتنا كنا نعرف جيداً أنه من المستحيل المضي بإصلاح طفيف هنا وهناك ؛ ما كنا نحتاجه ، باستخدام كلمات لينين ، كان تغييراً آخر في فهمنا لما يجب أن تكون الاشتراكية عليه . لكن كل خطوة قمنا بها كانت صعبة للغـاية بسبب حقيقـة أنه في أوسـاط الحزب وبين النـاس كانت هنـاك قـوالب إيديولوجية معينة تجذرت عبر عقود عديدة . علّة المجتمع بدت جدية أكثر بكثير مما كنا توقعناه في البداية .

سُئلت مؤخراً : إذا كان ممكناً العودة إلى ربيع 1985 ، فما الذي أرغب بفعله بشكل مختلف ؟ أجبت وبدون أي تردد إني كنت سلكت الدرب نفسه . كنت مقتنعاً بالفعل حينها بأن الإصلاحات ضرورة حيوية . وكلما عرفنا المزيد عن الوضع الحقيقي للبلد أصبحنا أكثر اقتناعاً بأنه كان يجب بدء الإصلاحات قبل عشر أو حتى عشرين سنة .

بتعابير عامة جداً ، أهداف البيريسترويكا هي : حرية اقتصادية ، حرية سياسية ، الإفلات من العزلة ، وإدخال البلد في التيار الرئيسي للمدنية . والمبدأ الأساسي إذا نظرنا إليه على مستوى فلسفي ، هو عدم القبول بأية نماذج جاهزة ، يمكن ، بغض النظر عن حسن النوايا ، أن تفرض على المجتمع لتأمين سعادة الشعب « من فوق » . الهدف هو تحرير القوى الحيوية لأفراد الشعب أنفسهم ، لإتاحة المجال أمامهم ، في إطار حركة حرّة ، لتأمين رفاهيتهم - كل إنسان بمفرده والكل معاً - وتمهيد الطريق إلى مستقبلهم ليس على أساس دوغماتي ، بل بتوجيه من قيم إنسانية بسيطة وعالمية ، تطورت على مدى قرون من التقدم في أنحاء العالم .

لم ندرك فوراً ، بالطبع ، مدى ما سنقطعه وما هي الإصلاحات العميقة التي نحتاج لإحداثها . كان ذلك سبباً لوقوع أخطاء : في بعض الحالات لم نعمل على ضمان أن تكون القرارات متزامنة ، في حالات أخرى كنا متأخرين أو تحركنا بسرعة عالية دون إمعان التفكير بالوضع وأزلنا الأعراف والبنى القديمة بدون إيجاد آلية جديدة . أحياناً أولينا الكثير من الاهتمام لأشخاص كانوا يدعون لكبح معقول وللحذر ، في حين كانوا بالفعل يعيقون تقدم الأمور ويكبحون الحركة .

كل ذلك صحيح . لكن كان علينا الإنخراط عملياً في العمل الجديد ، لامتلاك خبرة ، للنظر عميقاً في العقل الجماعي كما أصبح بعد سبعين سنة من نظام غير عادي وعزلة عن بقية العالم، ولتعلم أن نأخذ بالحسبان كل خصائصه المميزة . فقط عندها بلغنا الاستنتاج النهائي بأن البيريسترويكا لا يمكن قياسها وفق التصنيف المألوف ، ولا يمكن إدارتها وفق مبادىء الإيديولوجيا التي كانت

سائدة سابقاً . في النهاية ، رأينا أن البيـريسترويكا لا يمكن أن تنجح من داخل إطار النظام القديم ، مهما حاولنا تجديده وتحسينه . ما كنا نحتاجه هو تغيير لكل النظام السياسي والاقتصادي ، إصلاح كل الدولة المتعددة الجنسيـات : وهذه مـلامح ثـورة حقيقية كـانت قـد هيـأ ظـروفهـا مـاضينـا الخـاص والتقـدم في أنحاء العالم .

اثنـــان

الطلقات الأولى التي وُجهت إلى البيـريسترويكا جاءت من دوغماتيين من نوع جديد ، أعلنوا أنه لا توجد خطة ، لا مفهوم واضح ، وأننا قد بدأنا السير في درب دون أن نعرف إلى أين يؤدي . لن أورد أسماء لا الآن ولا لاحقاً أبداً ، لأن الكثيرين قد غيروا أكثر من مرة وجهات نظرهم ، أو على الأقل مواقفهم المعلنة .

اعتبرت دائماً أن النقد من ذلك النوع هو إما مجرد ديماغوجية أو فشل في فهم الأمور ، ذلك أن أسلوباً بدائياً من التفكير أُدخل في رؤوسهم بواسطة ثقافة تربوية ستالينية .

الشخص الذي يطلب في البدء ترتيب وضع كل شيء نقطة نقطة ، مـع إظهار ما الذي يجب فعله وكيف ، والذي يريد أن يعرف سلفاً كل التبعات لأي إصلاح مقرر يبـدأ العمل على تنفيـذه . . . شخص كهذا هـو بالضـرورة عدو لإصلاح المجتمع ، عدو البيـريسترويكا . لأن لا أحد غير المشعـوذين ، ولا أكاديمية يمكن تأمين برنامج كهذا . الإجابة مُناطة بالمجتمع ، عند اقترابه من مرحلة الإصلاحات العميقة الأثر ، فإنه « يؤلف نغمته الخـاصة » ، مستخـدماً تجربة الآخرين ، وآخذاً بالحسبان التقليد ، مستوى التقدم الذي تم بلوغـه ، ليس فقط اقتصادياً واجتماعياً وعلمياً وتكنولوجياً ، بل أيضاً ثقافياً .

جبهة أخرى فُتحت من قبل أولئك الـذين كانـوا خائفين من التجـديد ، والذين أعلنوا أنه عموماً لا يجب القيام بأي تغيير جوهري : لقد عشنا وكنا سنستمر بالعيش ، ربما ، بدون أي أذى. الصنف الثالث من النقد كان يقـول إننا كنـا محقين ببدء العملية ، وقد بدأنا بها إجمالاً بشكل صحيح ، لكننا لاحقاً ابتعدنا

عن خط الماركسية ـ اللينينية . وكان هناك المزيد سيأتي . سرعان ما سمعنا صرخات ترتفع من هذا المعسكر بشأن خيانة الاشتراكية ، وأن البيريسترويكا قد وُضعت خصيصاً لوضع حد للمجتمع الاشتراكي واللينينية في الوقت نفسه .

بعض الأشخاص انحدروا مؤخراً إلى مستوى الوقاحة . مثلما اتهم لينين مرة بكونه عميلاً ألمانياً كبيراً قام بتنفيذ الثورة بناء لأوامر من جهاز الاستخبارات الألمانية ، فإن صحافتنا الصفراء تسعى للكشف عن عملاء الأمبريالية الذين ينفذون خطط الأجهزة الغربية الخاصة ، من بين مطلقي البيريسترويكا .

وإلى جانب ذلك ـ ومرة ثانية كما حدث عام 1917 ـ تم ترويج « رواية » تقول إن البيرويسترويكا هي مؤامرة يهودية ـ ماسونية . لكن كل ذلك يندرج تحت إطار الشيزوفرينيا السياسية .

فيما يتعلق بالأشخاص داخل الحزب وخارجه ، الذين يعتبرون أن البيرويسترويكا تعني خيانة قضية الاشتراكية ، فإن هذا يشير فقط إلى وجود تراث لما بعد الستالينية ، ما زال بعيداً عن الإلغاء ، وأن الستالينية الجديدة حقيقة مُعاشة ، وأن هناك حمولة من المشاكل تُركت من الماضي ، وأن الثورة في عقول الناس عملية صعبة وبطيئة للغاية .

نحن نعمل في وضع تاريخي متناسق وفي بيئة اجتماعية ـ سياسية حقيقية ، وعلينا أخذ الوقائع بالحسبان ، وأن نتكلم بلغة الحقيقة ، لا بتعابير الماضي المبتذلة . ليس من تفكير نظري يستحق الاسم إذا لم يكن مستنداً إلى تحليل سياسي للوضع الحقيقي . وذلك يفترض مقدماً فوق كل شيء جهداً عقلياً هائلاً ، تأويلاً لكل ماضينا ولكل نشاطنا الحالي . تكهناتنا يجب أن تستند على الواقع لا على نماذج أو تصاميم حتى لو وُضعت على نحو تجريدي في أفضل المؤسسات . وإذا لم نتوقف عن تأليه الآباء المؤسسين ـ وقد تكلمت عن هذا الموضوع مرة ـ وإذا كنا سنستمر بالسعي إلى الحقيقة في مواجهة التفكير المنطقي في الخارج ، فإننا نجرد أنفسنا من إمكانية الدفاع عن فكرة الاشتراكية بطريقة حديثة .

تفكيرنا النظري قد تخلف بشكل سيء في فهمه للتطورات في بلدنا ،

وبالأخص ، في العالم . خطط مجردة من الماضي وأحكام مسبقة مغروسة عميقاً تسيطر على عقول الناس وتتدخل في عملية التقاط الإحساس بالتغيرات الحاصلة . لكن ، محاولين حماية عقائد الماركسية ـ اللينينية ، لا أن نقوم بتصحيحات جوهرية في نظرياتها ، استناداً إلى إنجازات العلم المتقدم بسرعة ، وعاجزين عن إغناء النظرية بكل التجربة للقرن العشرين ، فإننا نحكم على أنفسنا بالوقوع في أخطاء جدية في السياسات . وقد نقود البلد مرة أخرى إلى تلك الغابة بحيث أننا لن نذهل العالم بأشمله فقط بل سندفعه مرة أخرى للابتعاد عنا .

هذا بالضبط ما كان في ذهننا عندما تم تحضير مسودة برنامج جديد للحزب ، الذي أصبح منشوراً الآن ، والذي علينا أن نوحد حوله كل القوى المعافاة في المجتمع ، التي تريد نجاح البيريسترويكا .

منذ البداية الأولى ، كانت البيريسترويكا مدعومة من قسم مميز من الانتليجنسيا . لكن في الوضع الذي توجد فيه حرية وغلاسنوست ، فإن الانتليجنسيا ، وكما حدث بالفعل في أوقات التغيير الجذري في بلدنا ، بدأت تتفكك إلى مجموعات عدائية ، والعديد منها أصبحت لاحقاً في المعارضة لأن قادة البلد لم يتصرفوا حسب ما طلبه هذا القسم أو ذاك من الانتليجنسيا .

الانقسامات وعدم التحمل في الأوساط المثقفة ، التي تنتشر في كل المجتمع من خلال وفرة وسائل إعلام قديمة وجديدة ، تعكس ، غالباً بشكل مشوه مميز بالهستيريا والذعر ، واقع المجتمع الذي يجتاز الآن ، ليس فقط فترة مشاكل فحسب ، بل فترة اهتياج عظيم .

الناس يتطلعون في كل اتجاه بحثاً عن مخرج من الوضع . البعض يقترح الاستعادة الكاملة للنظام الذي كان قائماً في ظل القيصر . آخرون يدعون إلى إحياء القيم الروحية ، لكن بطريقة واحدة : « بمطابقتها مع الدين » والتسليم بأن تحتكر الكنيسة مهمة الترويج للفضيلة ، على المستوى الشخصي والعام . وآخرون يدعون إلى فرض النظام الرأسمالي « بشكله الصافي » كما يقولون ، دون أن يعرفوا ، أو يعتبروا أن من الضروري معرفة أن التحويل المفاجىء للقسم الأكبر من الملكية إلى ملكية خاصة من شأنه إحداث وضع لتراكم بدائي لرأس

المال ولتطور رأسمالي مبكر ، حيث كل شخص لنفسه ، وحيث يمسك كل فرد بخناق الآخر ، وحيث على كل من لم ينجح أن يسعى لإنقاذ نفسه كما يستطيع .

الناس يطلقون تعليقات ساخرة حول الخيار الاشتراكي ، لكنهم لا يرون أن رفض الاشتراكيـة الذي ترسخ في العقل الجمعي ، كان سببه ربط الاشتراكية بالستالينية . وهم لا يريدون ، حتى للحظة ، التفكير ملياً بحقيقة أن حق فكرة الاشتراكية بالوجود ينبع من المنطق الموضوعي للتاريخ البشري . وهذا أمر تقره حتى السلطات المعادية للشيوعية ، ومثقفون بارزون وفلاسفة معروفون جداً . أنا مقتنع بأن تشوه الاشتراكية في نظر الجماهير هو حالة عابرة . كفاح الشعب لأجل العدالة ، الحرية والديمقراطية ، غير قابل للكسر . إنه ، يمكن أن يُقال ، مسار عالمي ، في الموكب نفسه لتقدم الحضارة . الجيل المقبل سيعود بالتأكيد إلى هذه الفكرة العظيمة .

البعض يسعى للخلاص من خلال الندم الذي يتماثل مع رفض كل ما حدث بعد ثورة أوكتوبر . هذا موقف سلمي ، وديني تقريباً . لكن هنا أيضاً ، معادون عنيفون للمعتقدات والمؤسسات التقليدية ، لا يترددون في استخدام أكثر الوسائل بربرية لتدمير ذكريات ورموز الإيمان لأجيال بكاملها للشعب السوفياتي ، كانت قد عاشت وقاتلت وقدمت تضحيات لصالح فكرة عظيمة ، وهي غير مذنبة في حقيقة أن إخلاصها لمُثل الثورة الاشتراكلية قد استُغل ضدها . مع تطبيق كل شيء بشكل سيء .

هناك رأي ينتشر بشكل واسع بين الناس وبالأخص بين قسم من المسؤولين الشيوعيين ، يقول إنه صحيح بالإجمال وضع حد للتراث الستاليني واستمراريته في حشوة المرحلة البريجينفية . لكن الآن ، لو فقط لم تحدث أخطاء خلال العملية ، لو أن الرافعات القديمة المجربة للسلطة لم تُغير والأشخاص الذين يمسكونها بأيديهم لم يُمسوا . . . في هذه الأوساط ، فإن مؤتمر الحزب التاسع عشر ، الذي عقد عام 1988 ، هو الغلطة السياسية الأكثر خطورة . لأنه ، كما يزعمون ، كان مؤشراً على بدء انهيار الحزب والدولة . وهكذا فإن « البيريسترويكا لم تُحقق » ، لم تبلغ هدفها الأصلي ، ولذا « علينا العودة

إلى الوراء » .

أجـل ، هناك العـديد من مسؤولي الحـزب لا يستطيعـون التخلص من التوق . إسباني مثقف جداً تكلمت معه مرة قال إنه إذا كان حزب ، أو قسم منه ، يقدّر أكثر من أي شيء آخر « رموز إخلاص لماضيه » . . عندها يخسر أساس شرعيته في بلد ديمقراطي . سوف أذكركم مرة أخرى بما قلته قبل ثلاث سنوات : « كلنا ، كل الحزب ، يجب أن نتعلم العسل في وضعٍ أكثر ديمقراطية » . وإذا حكمنا من خلال كل ما حصل ، نستنتج أن الإنذار لم يؤخذ بجدية . الحزب تخلّف وراء العملية الديمقراطية في المجتمع . وعلى هذه الأرضية نمت بداخله عقدة دونية دفعت بالكثيرين إلى صفوف المعارضين المحافظين .

الديمقراطية تحقق المزيد من التقدم على الأرض ، رغم أن الأشكال التي تأخذها لم يشتد عودها بعد. مجتمعنا يعيش بشكل مختلف. العديد من القوى الجديدة ظهرت على الساحة السياسية ، تبحث عن أساليب العمـل ، ترتكب أخطاء ، لكنها ترغب بخدمة البلد . لكن هناك أيضاً قوى هـدامة وذات نـزعة عسكرية ، تعبر عن نفسها وتحـظى بشعبية ، وهي رجعيـة ومعاديـة للشيوعيـة بشكل مفضوح .

كل هذا غيّـر تمامـاً المناخ السيـاسي في البلد . الذي يجب أن يُحكم بالقانون ، وفقط بالقـانون ، الـذي يجب أن ينبذ التمييـز والامتيازات . يجب العمل على كسب الناس بمنافسة عادلة للوقوف إلى جانب أفكار تفيد أمتنا كلها ومصالحنا المشتركة . علينا أن نظهر أننـا على حق ونعمل على تماسك المجتمع فقط من خلال إطار القانون ، وبوسائل ديمقراطية سلمية : فقط بهذه الطريقة ، واعتماداً على الأغلبية المتنورة ، يمكننا إجهاض وكبح المحاولات من كل أنواع القوميين ، الشيوفينيين ، المغامرين ، وعناصر مشابهة . وإلا ستقع كارثة .

أجل ، تلك القوى تريد إفقاد قادة البلد تـوازنهم . وعندمـا يفشلون في تحقيق ما يريدون عبر أقنية دستورية ، فإنهم يعملون عبر الحشود ، ويلجأون إلى حكم الغوغاء ، التحريض واستغلال الصعوبات . هذه الظاهرة يمكن ملاحظتها الآن في دوائـر الحزب . إنهـا الطريقـة لنقل الحـزب إلى الموقـع المعـارض

للبيريسترويكا . لكن بالنسبة للشيوعيين ، إذا أرادوا البقاء قوة سياسية مؤثرة ، ليس أمامهم خيار غير البحث عن أسئلة على طول دروب الاستمرار والتوسع بالإصلاحات ، والتي تهدف لإحداث تجديد جذري للمجتمع وتحديثه . ليس من مخرج من الأزمة أمامنا غير توحيد كل القوى الوطنية وكل الحركات الديمقراطية لتحمل مهام في أرجاء البلاد . لهذه الغاية لابد التعاون ، وحيث تفرض الضرورة المساومة مع قوى سياسية أخرى .

فرض حالة طوارىء ، التي يرى فيها حتى بعض مؤيدي البيريسترويكا دون ذكر أولئك الذين يبشرون بإيديولوجيا الديكتاتورية ، مخرجاً من الأزمة ، قد تكون خطوة قاتلة ، وطريقاً مؤدية إلى حرب أهلية . بكلام صريح ، فإن وراء الدعوات لفرض حالة طوارىء ، ليس من الصعب أحياناً اكتشاف سعي للعودة إلى النظام السياسي الذي كان قائماً في مرحلة ما قبل البيريسترويكا .

بين مجموعة المنتقدين والمعارضين ، هناك يضاً شيوعيون أصوليون ، الذين هم غير قادرين على تحرير أنفسهم من أسر الأفكار الدوغماتية . بغض النظر عن الحقائق التي يعرفها كل شخص الآن ، وبغض النظر عن الحالة الراهنة للرأي العام ، فإنهم لا يريدون الإقرار بمدى فداحة الثمن الذي يجب دفعه مقابل السلوك النظري اللاعملي والإيمان اللامحدود بالأفكار والأساطير الإيديولوجية ، إنهم يطلبون أن نجعل الحزب من جديد العمود الفقري للدولة والمدير لكل نشاط المجتمع ، والقوة القائدة ، ويعلنون أن إصلاح النظام السياسي مؤامرة سياسية تستهدف الشعب ويصفون إدخال الديمقراطية إلى الاقتصاد بأنها عودة إلى نظام ما قبل الثورة . شعارات حملتهم تُظهر : إنهم ضد الانتهازيين ، التحريفيين ، المناشفة الجدد ، الشيوعيين القوميين و « الخونة الاجتماعيين » .

تلك سياسة تقود مرة أخرى إلى انقسام المجتمع بين حمر وبيض ، وفي النهاية إلى كارثة أهلية ، لا يمكن الاستناد إلى أخطاء وقعت خلال مسار البيريسترويكا لتبرير موقف كهذا .

لا يمكن تجنب وقوع أخطاء في مهمة هائلة كهذه ، كإدارة عملية انتقال بلد ضخم ، معقد جداً ، متعدد الجنسيات ويضم 300 مليون نسمة ، إلى مسار

تطور مختلف جذرياً . ليس من قديسين في مشروع كهذا . الشيء الوحيد الذي يمكن أن أؤكده بضمير مرتاح ، هو أني خلال السنوات الست ، لم أقع في إغراء التراجع ، الاستسلام ، رفض الهدف المختار أو لحل نفسي من مسؤولية القضية المتبناة والسير بها إلى الأمام ، لم أرتكب هذه الغلطة ، أفدح غلطة ممكنة .

والآن ، بخصوص الزعم بأن المؤتمر التاسع عشر للحزب كان الغلطة الرئيسية ، التي وقعت على طريق البيريسترويكا . لا ، هذا الزعم ليس صحيحاً . الميزة التاريخية الحاسمة للمؤتمر تكمن بشكل دقيق في حقيقة أنه كان المناسبة التي قيل فيها وكُشف أمام كل العالم أننا لا نتلاعب بالديمقراطية ، بل أننا نأخذ مبادئها بجدية ونعزم على التصرف بالإنسجام مع القوانين التي أرستها في مسار تقدم العالم . المؤتمر حفز فعلياً التقدم السريع للعملية الديمقراطية في بلدنا . ومن خلال ذلك أعلن وكشف أكثر فأكثر النقطة الرئيسية للبيريسترويكا : على المجتمع أن يتطور، لا وفق أوامر من فوق، ولا وصفة طبية جاهزة، ولا تحت سيطرة هيئات تمارس احتكاراً على الإيديولوجيا والسياسات ، بل وفق المنطق الطبيعي للتقدم الديمقراطي ، مختبراً بحرية إمكاناته الاجتماعية والثقافية . سوف يتحرك إلى الأمام في بحث دائم على أساس تعددي ، بحث عن القرارات السياسية الملائمة التي هناك حاجة إليها لفرض النظام خلال هذه العملية التاريخية .

المؤتمر التاسع عشر وضع عملية الإصلاح على المسار الصحيح ، وجعلها أمراً لا عودة عنه .

إدخال الديمقراطية إلى مجتمعنا سيكون محكوماً عليه بالفشل إذا لم تشمل الديمقراطية العلاقات بين القوميات وحقوق كل الناس . لكن عملية إحياء إدراك الذات القومية وتقرير المصير ، التي بدأت بدعم وتفهم مطلقي البيريسترويكا ، امتلكت شخصية هدامة ومتفجرة . في العديد من الحالات تولاها أشخاص كانوا أما عديمي الخبرة السياسية ، أو ببساطة قوميين متعصبين غير مسؤولين . لكن عندما أدّت أحداث إلى إراقة دماء ، كان « المركز » ، في نظرهم ، هو من يجب لومه لأنه « لم يتخذ احتياطات » ، « لم يمنع » ، « لأنه تأخر كثيراً » أو على

العكس « ليس لديه حق التدخل » . في هـذه الاتهامـات هناك رسـالة واحـدة صحيحـة : إن على « المركـز » دعم طـرف مـا ، وفي الحقيقـة أن يقف إلى « جانبي » ضد الآخر .

أقرينا بمبدأ لينين في تقرير المصير عملياً وصولاً إلى الانفصـال ورفضنا التصور الستاليني للدولة الوحدوية الترابطية، الذي كان تشويهـاً للفهم اللينيني لاتحاد فدرالي سوفياتي ، وأعطينا الجمهوريات حرية إعادة تنظيم اتحادهم وفق مبادىء فدرالية متساوية وطوعية بشكل فعلي .

بالفعل إنه سؤال عن مصير بلدنا ، أرضنا ، وطننـا المشترك ، عن كيف سنعيش نحن ، أطفالنا وأحفادنا . إنها مشكلة كبيرة ومهمة بحيث تتصدر أولوية اهتمامات أحزاب معينة ، مجموعات اجتماعية وسياسية وحركات اجتمـاعية . ولهذا السبب كنت مؤيداً بعزم لإجراء استفتاء عام . وكما بدا ، فإنه بالرغم من الظروف غير المستحبة جداً في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وازدياد السخط نتيجة تدهور مستوى المعيشة ، فإن النـاس أثبتوا إدراكهم الجيـد ، إحساسهم الكبير بالمسؤولية ، ووطنيتهم بالفعل . الأغلبية صـوتت لصالـح الحفاظ على وحـدة أراضي الدولـة ، التي يبلغ عمـرهـا ألف سنـة ، والتي أقيمت بجهـود وتضحيات لا تحصى لأجيال عديدة . صوتوا لاتحاد يلتحم فيه ، بشكل لا فكاك منه ، مصائر ملايين الأرواح البشرية . أظهر الاستفتاء احترام الشعب بكبريـاء للدولة التي كانت قد أثبتت أكثر من مرة قدرتها في الدفاع عن استقلال وسلامة الشعوب الموحدة داخلها ، والتي كانت الآن تثبت نفسها بكونها بادئة وحصنـاً لسلام حقيقي واستقرار عالمي . الاستفتاء وفر دعماً سياسياً ومعنوياً ملزماً لتسريع العمل على معاهدة الاتحاد .

الشعب بدأ يفهم بوضوح أكثر فأكثر أننا ، برفضنا خياراً متـطرفاً ـ خيـار نموذج الدولة الترابطية التي لا تتيح للجمهوريات الفرصة لتقرير المشاكل التي بدأت الآن بتقريرها في سياق تحويلها إلى دول ذات سيادة ـ علينا تجنب خطأ الوقوع في خيار متطرف مقابل ، ونحول الاتحاد إلى شيء غير فعال ولا شكل له . سيكون ذلك كارثة ليست أقل من تلك التي أدى إليها التوتاليتاري التكاملي . في مسار 1500 سنة في حالة أولى، و 200 سنة إلى 300 سنة في حالة ثانية و 50

سنة في الحالة الثالثة ، أخذت حدائق كهذه نكل نمو صحي تطلب اتحاداً فدرالياً حقيقياً وحيوياً ، لا نوعاً من الارتباط الضعيف الأواصر .

هناك كلام عن انهيار دولتنا . لكن ليست الدولة هي التي تنهار . باعتبار أنها أخذت شكلها على مدى قرون فإنها حيّة اليوم وستستمر حية . ما ينهار هو بنية القيادة ، التي سعت للتقريب بين الجمهوريات والناس بتوجيه من فوق ، والتي بلغت نقطة التناقض مع مقتضيات المزيد من التطور ومع تطلعات الناس أنفسهم . الفورة الحالية للمشاعر الوطنية والقومية دليل مقنع يكشف كم كانت البنية السابقة غير مرغوب فيها . وكم كانت العلل التي تزعزع وضع الاتحاد خطيرة . هذه هي بالضبط الأسباب التي أظهرت احتمالاً فعلياً لانهيار الدولة . هل بإمكان أي شخص أن يفكر جدياً اليوم ، على عتبة القرن الحادي والعشرين ، وعندما تكتسح موجة ديمقراطية ضخمة أنحاء العالم ، أن بإمكان أحد أن يبني أو يحفظ تماسك دولة متعددة الجنسيات بالإكراه ؟ .

اليوم يتم تركيب وحدة طوعية بكل معنى الكلمة بين الشعوب ، من شأنها توفير استقرار لا مثيل له لاتحادنا . وما أن تصبح العلاقات المرسومة في معاهدة الاتحاد ، واقعاً حتى يصبح اتحادنا المُجدد عامراً بالحياة وسيتماسك بنفسه . سيبدأ زمن جديد ، زمن تقوية الروابط المتبادلة والطوعية بين شعوب بلدنا .

إننا نؤسس دولة عصرية والمعايير التي يُحكم من خلالها على مدى قوتها وعظمتها مختلفة جداً عن السابق . اليوم ، الدولة الديمقراطية فقط يمكن أن تكون عظيمة . الدولة العصرية لا تكون قوية إذا امتلكت سيطرة وثيقة على كل أوجه الحياة ، ولا باستعداد شعبها للسير في الاتجاه الذي يُحدد من فوق ، بل إذا امتلكت قوة الاتفاق الديمقراطي ، الحرية ، روح التحرر ، الاعتماد على مبادرة مواطنيها ، ومستوى عالٍ لمعيشة مواطنيها . على امتداد مساحة قارة عملياً ، نقوم بخلق مساحة جديدة ديمقراطية ، سياسياً واقتصادياً وروحياً . إننا نؤسس دولة ديمقراطية عظيمة لن تكون محكومة بالسعي الأبدي للحاق بالبلاد المتقدمة .

إنجاز معاهدة الاتحاد سيجعل ممكناً أخيراً دفع عمليات البناء واتخاذ

خطوات حاسمة باتجاه استعادة الشروط الطبيعية للحياة والعمل .

نحن عشية حدث عظيم وحاسم في تاريخ بلدنا . كنتيجة لنقاشات حامية ، لكمّ هائل من العمل الخلّاق الذي قرّب بين الآراء والاهتمامات والمصالح لعشرات الأشخاص ، كنتيجة لمعركة سياسية صعبة ، التي تشهد فقط على عظمة طبيعة قضيتنا ، تبرز الآن دولة جديدة ، لا مثيل لها ، قوة عظمى مبنية على أسس المساواة والطوعية الكلية . قوة عظمى ليس بفضل قوتها العسكرية وقدرتها على إحداث الرعب ، مثلما كانت لفترة طويلة في الماضي ، ولكن بالدرجة الأولى بسبب العافية الاقتصادية والاجتماعية لسكانها الكثيري العدد والمتعددي الجنسيات ، الذين يعيشون في ظروف الديمقراطية والحرية الاقتصادية والسياسية . وستستمد حيويتها القوة من العمل المشترك والتقسيم المعقول والعادل للعمل بين كل القوميات وتشكيلات دولها ذات السيادة .

الحياة والزمن رتبا الأمور بتلك الطريقة التي أوجبت أن يتم دفع الفواتير المستحقة من قبل الجيل الجديد من القادة ، في المركز ، في الجمهوريات والمناطق . الجزء الأكبر من المسؤولية يقع على عاتقنا ويتمثل في ضمان أن تتكلل القضية التاريخية فعلاً لتوحيد شعوبنا مرة ثانية بالنجاح .

الشعور بنشاط التطرف الانفصالي والقومي يمكن تفسيره ، وإلى حد ما يمكن فهمه في مرحلة تفجرت فيها أخيراً تناقضات الدولة التوتاليتارية الترابطية ، التي كانت تتراكم منذ زمن طويل .

ولكن عندما نؤسس ـ من خلال معاهدة الاتحاد ـ منطقة اقتصاد سوق تغطي كل البلد ، وتصبح أكثر فأكثر منخرطة في السوق العالمية ، وعندما تبدأ آلية التنسيق بين الجمهوريات ذات السيادة بالعمل ، عندما نبدأ معاً بالخروج من الأزمة ويبدأ الناس بالتمتع بالثمار المادية الأولى للبيرويسترويكا ـ عندها فإن كل الناس الشرفاء (وأغلبهم شرفاء بالفعل) ، الذين جرفتهم الميول القومية فأفقدتهم الإدراك الصحيح ولم يوقفوا زعماءهم الذين كانوا يطلقون شعار : الأسوأ للاتحاد الأفضل لقوميتي ـ أولئك الناس لن يخجلوا من أنفسهم فقط ، بل وسيدركون أي غلطة فادحة ارتكبوها عندما لم يشاركوا في عملية اندماج عظيمة ،

على سُدس أرض كوكبنا .

البيـريسترويكا لا يمكن أن تتحقق في خواء دولي ، خصوصاً ليس في بيئة خارجية معادية . هذا ، على ما يبدو ، واضح للجميع . لكن عندما كانت تتخذ خطوات متناسقة لإنهاء المواجهة مع الغرب ، التي استمرت زمناً طـويلاً بـلا جدوى ، والخطيرة للغاية والمكلفة بشكل لا يُحتمل ، بدأت الإتهامات تتدفق : بأن ما لم تحصل الامبريالية عليه بالقوة نقوم بتقديمه لها على طبق ، إننا قد خسرنا « الحرب العالمية الثالثة » ، إننا قد تنازلنا عما ربحناه في الحرب الـوطنية بين عامي 1941 ـ 1945 ، إننا نهين ذكرى ملايين الذين ضحوا بأرواحهم في تلك الحرب ، وبأننا نخون أصدقاءنا وحلفاءنا ، بأننا دمرنا النظام الاشتراكي ، وأننا طعنّا الشيوعية العالمية بالظهر ، وغيرها من الاتهامات .

كنتيجة ، وحسب الزعم ، فإن البيرويسترويكا أضعفت مواقف السياسـة الخارجية لدولتنا العظيمة ، وأصبحنا نرقص على أنغام آخرين . فلنـدخل إلى صلب هذه النقطة. الاتحاد السوفياتي قام بالفعل بجهود يائسة للعب دور « قوة عظمى » ، ولكنه نجح في ذلك فقط في مجال واحد ـ المجال العسكري . لذا كانت هيبتنا هيبة قوة عسكرية، هيبة الخطر . القوات السوفياتية كانت متمركزة في أوروبا الشرقية وفي منغوليا ، شبابنا اليافعون كانوا يموتون في أفغانستان . في الوقت نفسه ، كانت الآلة العسكرية المفرطة ، التي أُوجدت ، تزعزع اقتصادنا وتحكم على القطاعات الاقتصادية غير العسكرية بالركود المريع وعلى مستوى المعيشة بالانخفاض . فوق ذلك بدأت قدراتنا العسكرية بالتراجع تدريجياً بفعل التخلف التكنولوجي المتزايد والإنفاق الزائد . في النهاية ، كنا سنجد أنفسنا أمام خيار: إما أن نضع العالم في مدى مدافعنا أو أن نتراجع إلى الوراء من الناحية العسكرية . كنا قوة عظمى باقتصاد غير كفوء وأصبحنا تقريباً ذيلاً لتأمين مواد خامة للدول الأكثر تقدماً ، في حين كان مستوى معيشتنا ، أدنى بكثير من مستواهم . هـل هي وطنية أن يشعـر المواطنـون المتلهفون بشـأن هيبـة بلدهم ، بـالتـوق لكل ذلك ؟

لقد وضعنا حداً للسياسة الخارجية التي خدمت هدفاً يوتوبياً لنشر الشيوعية في أرجاء العالم ، وقادتنا إلى الدرب المسدود للحـرب الباردة ، فـارضة على

الناس عبء إنفاق عسكري لا يحتمل ، وجرتنا إلى مغامرات كتلك التي حصلت في أفغانستان . للمرة الأولى خلال سنوات وعقود عديدة يتم إرساء سياسة خارجية لتخدم مصالحنا القومية الخاصة ، وتعمل لإفادة تقدمنا الداخلي .

في الوقت نفسه ، امتلكنا سلطة دولية عالية ، لا سابقة لها ، لكن من نوع مختلف ـ سلطة مبنية على الثقة ، سلطة سياسية خارجية بناءة ، قابلة للتنبوء ، أخلاقية وخالية من المغامراتية ، تحرير الجنس البشري من خطر « هرمجيدون »[1] نووية أدى بالفعل إلى زيادة أمن بلدنا . أساس متين قد خُلق لزيادة قوة مواقف السياسة الخارجية لدولتنا . فلنتذكر ما قاله الوزير الروسي للشؤون الخارجية في القرن الماضي ، الوزير غورشاكوف : « روسيا تركّز » بالإشارة إلى انتعاش سلطتها في أعقاب إصلاحات الستينات والسبعينات من القرن الثامن عشر .

الاتحاد السوفياتي ما يزال وسيبقى قوة عظمى ، بدونها لا يمكن تقرير قضايا العالم . لكننا قد أصبحنا عضواً طبيعياً في المجتمع الدولي ، ونندمج على قاعدة المساواة في تيار المدنية العالمية .

هناك كلام عن « بيع » دولتنا ، بالإشارة إلى الاتصالات المتنوعة مع دول أخرى ، وتدفق الأجانب إلى بلدنا ، وزيادة ـ رغم أنها ليست بالسرعة الكافية ـ نشاط الرأسمال الأجنبي في الاتحاد السوفياتي . لكن هل الوطنية هي بالفعل مسألة عزل بلد الإنسان عن تقدم العالم وعن الإنجازات العلمية ، التكنولوجية والثقافية؟ في هذه الحالة، حتى بطرس الأكبر، الذي «فتح نافذة على أوروبا» والذي استخدم كثيراً الخبرة والمعرفة والقدرة العملية للأوروبيين ، لم يكن وطنياً .

اليوم تحديداً تتطلب الوطنية تحريك بلدنا إلى الأمام بسرعة أكبر لامتلاك إنجازات العلم والتكنولوجيا ، إنجازات الحضارة العالمية . هذا بالضبط أيضاً ما نقوم بعمله ، وعلى رأس الجسر هذا ، نقوم أيضاً بتأمين المتطلبات الأساسية لتجديد ، إنعاش وتقوية دولتنا العظيمة .

---

(1) هرمجيدون : الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير والشر .

الوضع الذي اختفى فيه خطر حرب عالمية ، أظهر مدى خطر التسلح المفرط ومنافاته للعقل. ونفس الاستمرار بالحرب الباردة وسباق التسلح اللذين استنزفا موارد البلد وأوصلاه إلى حافة انهيار اقتصادي ، كان له تأثير على الجيش وكل قطاعات الاقتصاد التي تموّنه ، وعلى مجمّع التصنيع الحربي .

الذين تضررت مصالحهم ، حتى لو فهموا حتمية حدوث هذه التغييرات ، خصوصاً أولئك الذين قرروا استغلال النتائج الاجتماعية والنفسية لعودة قواتنا من دول أجنبية ، وتخفيض عدد الجنود والأسلحة ، والتحول من صناعة الأسلحة ـ أولئك فتحوا جبهة جديدة ضد البيريسترويكا .

لجأوا إلى أوقح أنواع الديماغوجية : لقد تركنا الجيش تحت رحمة القدر ، زعزعنا السند الرئيسي لنظام دولتنا ، أهنّا الجنرالات والداريشالات ، وكلام على هذا المنوال . كانوا وما يزالون يصيبون المواضع الأكثر حساسية، لامسين ليس فقط الجانب المادي اليومي للمشكلة ، بل أيضاً مشاعر الوطنية واحترام شعبنا التقليدي للقوات المسلحة . هذه الديماغوجية غير الملجومة التي أثارت غيظ العسكريين وأثارت غضباً مبرراً في أوساط الجيش والشعب عامة، يساعد في رواجها أولئك الذين ـ لمصالح ذاتية أو قناعات قومية ـ يطلقون عنان الإفتراءات ضد الجيش ويهينون الضباط والجنود علناً ، وكذلك السلطات المحلية في بعض الأماكن التي تحاول أذيتهم بكل شكل وزيادة أوضاع حياتهم وخدمتهم سوءاً .

عند التفكير بهذه النتائج الجانبية للبيريسترويكا ، بالاضطراب الذي هو بطرق عديدة لا مفر منه في فترة انتقال ثوري من نظام لآخر ، ترد على البال الفكرة التالية .

المحنة الكبرى لروسيا القديمة ، التي كانت سبب عدم تحقيق ثورة شباط/ فبراير شيء ، وفشل الفكرة وراء ثورة أوكتوبر ، كانت تكمن في حقيقة أن ملايين الناس العاديين كانوا أميين ، مما كان يعني أنهم مقطوعون عن الحياة السياسية . وخلال تقرير مصير البلد فإنهم كانوا يمثلون قوة مادية يمكن السيطرة عليها بسهولة وبوسائل بدائية للغاية .

المحنة الكبرى للاتحاد السوفياتي ، كانت في حقيقة أن الناس كانوا

يلقنون القراءة والكتابة بهدف فرض برنامج تطور مصنوع سلفاً عليهم ، لإثـارة الكراهية تجاه أي شيء لم يكن يشبه ذلك البرنامج ، لعزل الناس عن العـالم الخارجي والمدنية المتقدمة . وكنتيجة أصبح الناس أداة يتلاعب بها مغامرون سياسيون ، الذين كانوا الهدف الشامل للحياة هو السلطة غير المحدودة ، خضوع الناس الأعمى لإرادتهم والاستبداد المـطلق ، بما يتعـارض كلياً مـع المعاييـر الأخلاقية وحقوق الإنسان .

الفكرة لا تفارق ذهني ، بأنه لولا ما قام به ستالين في العشرينات من القرن الحالي ، والذي كان خيانة وإجهاضاً لأفكار الثورة الكبرى - وهي ثـورة كانت شعبية بالفعل ولصالح الشعب - لكان ممكناً توجيه البلد على طول درب التطور الديمقراطي ، والانتعاش والازدهار الاقتصـادي ، وتصحيح الأخـطاء وحالات الظلم التي وقعت خلال الحرب الأهلية ، ولمداواة الجروح المعنوية .

الآن فقط ، في مسار السنوات القليلة الماضية ، أصبح لدينا مدخل لمعرفة الحالة الحقيقية للبشرية في النصف الثاني من القرن العشرين ، وأن نقدر على التطلع إلى أنفسنا من خلال مفكرين وكتّاب رائعين نُبذوا إلى خارج البلد وظلوا متحمسين لوطنيتهم ، وأن نحرر أنفسنا من الخوف لنبدأ بانتشال أنفسنا من أسر الأفكار والصور المقولبة الموروثة من المرحلة الستالينية ونستعيد إدراكنـا .الآن فقط بدأ بروز بيئـة روحية ثمـة حاجـة إليها لفهم صحيـح لحقيقة وضـع بلدنا ومصيره . لكننا ما نزال فقط في بداية هذا الاكتشاف لأنفسنا ، وبالتأكيد في بداية هضم كـل ما تعملنـاه وفهمناه : في بـالي أغلبية مـواطنينا وبينهم جـزء معتبـر من الانتليجنسيا .

فترة معرفة الذات والتطهير قد مُطت كثيراً فكان ذلك سبباً لإحداث الكثير من السلبيات وبناء عوائق جديدة أمام الإدراك المشترك والإتفاق .

حتى بعـض الاكتشافات والإنجـازات الفكريـة والفنية الأصيلة والكبيـرة بالفعل من العهد السوفياتي ، والتي تحظى بشهرة عالمية ، أصبحت الآن موضع إنكار لأهميتهـا .

كل هذه الحركة الإنفعالية ، المشوشة والهائجة ، والتي تتضمن الكثير من

الإخلاص والتوق لأمور أفضل للبلد ، كان شيئاً يجب على بلدنا اجتيازه . كان علينا المرور عبر ذلك بحيث ننعش عقولنا ، لنجرب وننقي ضمائرنا ، لفهم أين كنا . ولإدراك الحقيقة . لكن ، وباستخدام استعارة ثوراتية ، كانت الحجارة ترمى مشتتة عن بعض .

الآن حان وقت جمع الحجارة . هذه العملية بدأت مع إعلان « 9 + 1 » . في لحظة مواجهة خطيرة حدثت في الربيع وهددت بتجاوز الحدود ، نجحت القوى السياسية الأساسية بإدراك مسؤولياتها وبالاتفاق على كيفية انتشال البلد من الأزمة ، بجهودهم المشتركة . اتفاقية « 9 + 1 » نجحت في نزع فتيل الوضع ، لتصبح دوراً صحياً وأرست الأساس لنزعة تهدف لبلوغ الاتفاق والاستقرار . وكانت مصادرها غريزة الناس لحفظ الذات ، اشمئزازهم من التلاعب ، طموح طبيعي لبلوغ اتفاقية بالنسبة لقضية إنقاذ البلد ، وببساطة الصحوة من صدمة معرفة الحقيقة التي بدت مأساوية . وظهرت إمكانية لإدارة حياة سياسية من داخل إطار التفاعل ، عمل المؤسسات الشرعية ، التي تأسست بفضل البيريسترويكا ، ولنبذ حل المشاكل من خلال الغوغائيين الصارخين بهتاف : « فليسقط . . . » . الميول تزداد قوة في المجتمع لتهدئة وحل المشاكل بأسلوب هادىء بما يتناسب مع المبادىء الكامنة في أساس البيريسترويكا . الأفكار البنّاءة بدأت بالبروز وهي ترتبط بمستقبل الحركة . برامج الحزب وتعديلات دستورية وقد كُتبت وتمت صياغة تشريع جديد .

خطط لا تُحصى « لإنقاذ البلد » نُشرت في الصحف والمجلات . وهي تتضمن العديد من الأفكار المثيرة والنوايا الجيدة . على أي حال، فإن الملمح المشترك لمعظمها هو الميل لرغبة فرض نموذج مثالي آخر على البلد ، نموذج هو ، حسب وجهة نظر كل كاتب ، الأفضل والأكثر فعالية . إنها بالضرورة مسألة إلزام المجتمع بقالب جاهز ، كل شيء فيه موضوع وفق وظائف وأوقات ، والذي ، في حال أدى كل واحد حسب ما هو محدد له ، سيضمن بلوغ النتيجة المنشودة . كنا بالفعل قد اجتزنا شيئاً من هذا القبيل .

لكن يجب ألا نسمح بأن يؤخذ كل هذا ، لا بكونه جزءاً من نقاش وطريقة

طبيعية وعادية للسعي وراء الحقيقة ، بل كمواجهة بين « حمر وبيض » : « الزرق والسود » ، المجددون والخونة أعداء الشعب و « الأصدقاء الحقيقيون » للشعب. وهذا قد يعني العودة إلى الثلاثينات. ستكون هناك صراعات ومقاربات مختلفة للمسائل . هذا طبيعي وفيه يكمن مصدر الحركة . قمع التفكير المستقل والآراء المعارضة ، هو طريقة لقتل المجتمع .

في الوقت نفسه ، نحن شهود على بروز كل أنواع الأحزاب ، الحركات ، الاتحادات ، الروابط ، الأندية وغيرها . ما هو إيجابي هنا أنه يشير إلى تفعيل إدراك الناس ، إلى صحوة عقل جمعي ، وازدياد حماس الناس لأخذ دور في الحياة السياسية ، التي من الآن فصاعداً لا يمكن أن تكون أمراً مقتصراً على القادة والسلطات . لكن هذه الوفرة في التجمعات تعكس أيضاً كفاح أجزاء مختلفة من المجتمع للدفاع عن مصالحها وحاجاتها الخاصة بالتعارض مع بقية الشعب . صراعات كهذه ـ ونحن نشهد عداء مفتوحاً بين ممثلي مصالح مختلفة ـ هي خطيرة . لدينا هنا مزيج متفجر يتراكم ، وهنا مصدر عدم استقرار وخطر انهيار على الميول الإيجابية .

لهذا نحن الآن بحاجة لخطوط عريضة واضحة لتقودنا باتجاه الاتفاق والوحدة حول المهام القومية الاتحادية الشاملة .نحن بحاجة لحشد كل قوانا لدعم مواقف ومبادىء تحويل البلد ، التي تم الاتفاق عليها : اقتصاد مختلط ، أشكال متنوعة للملكية، مؤسسات ديمقراطية، فصل واضح للسلطات واتحاد فدرالي جديد . بإيجاز ،الإصلاح الديمقراطي للمجتمع مُعد لقيادة البلد إلى الأمام إلى الحدود الأكثر تقدماً للمدنية الحديثة ، عبر تداخل الاتحاد السوڤياتي مع المجتمع العالمي .

كل هذه ، مأخوذة معاً ، تشكل الفكرة الوطنية المشتركة ، التي هي ضرورية لنا للحصول على اتفاق شعبي وتقدم سلمي على طول درب البيريسترويكا .

عملية نوڤو ـ أوغاريڤو ، التي أدت إلى معاهدة الاتحاد ، تتضمن في داخلها آلية أمان حقيقي لحفظ ذات البلد . علينا أن نتشبث بذلك ، محافظين دائماً أمام أعيننا على الأهداف الرئيسية للبيريسترويكا : الحرية السياسية ،

الحرية الاقتصادية ، الحرية الفكرية . يجب أن نقف بثبات ونحافظ على موقفعنا . . . ونعمل لضمان عدم فتح الطريق أمام الستالينيين الجدد ، نماذج المتراجعين ، والمغامرين والراديكاليين المتطرفين ، ونحافظ على مسار البيريسترويكا السلمي . غير ذلك فإن كل شيء سيرجع إلى الوراء - إلى الطرق القديمة .

تغير كهذا في المسار ، وإصلاحات كهذه ، تتضمن تغييراً لطريقة الحياة كلها تقريباً وتؤثر على الملكية ، العلاقات المنتجة وموقع الإنسان في الإنسان ، ليست ، ولم تكن أبداً في تاريخ العالم كله ، سهلة وبدون ألم . العديد من البلدان مرت بمراحل حرجة لكنها تجاوزتها بشكل صحيح وامتلكت قوة منعشة وتقدمت أكثر .

في مسار تاريخنا ، الممتد قروناً طويلة ، كانت هناك أكثر من مرة فترات حرجة كان على روسيا فيها أن تنتعش من جديد ، وكان ذلك دائماً نقلة مؤلمة ، بما أنها لم تكن تعرف كيف تسلك دروب التطور الإصلاحي : العلاقات القديمة قاومت حتى النهاية ، حتى الخندق الأخير ، إذا جاز التعبير . ولم يكن هناك نقص في التنبؤات السوداوية أو التصريحات المثيرة للذعر عن كارثة لا مرد منها . ومع ذلك ، كان البلد عادة يخرج من هذه الفترات الصعبة أقوى وأثبت . وهذا ما سيكون مع الاتحاد السوفياتي .

لكن التجربة التاريخية نفسها تعلّم أن النتائج المفيدة للإصلاح لا تظهر بوضوح فوراً ، وأن على البلد أن يدفع ثمناً من الألم والمعاناة مقابلها . لذا فإننا اليوم ندفع ذلك الثمن مقابل تحررنا من الأصفاد السياسية والاقتصادية والروحية ، والتقدم باتجاه دولة جديدة ، أقوى وأكثر حيوية .

لكن يجب أن نُفهم أنفسنا بسرعة أكبر ، أن أي مجتمع أو دولة يمكنها التطور طبيعياً فقط إذا كانت هناك سلطة تنفيذية قوية مستندة إلى دعم شعبي . وهذا يتطلب اتفاق القوى السياسية الرئيسية و متعدادها للعمل معاً في سبيل مصالح الأمة ككل . وليس عليها أن تخاف من المشاكل : إذا لم تكن هناك أي مشكلة فذلك يعني أن المجتمع بلغ مرحلة الجمود وسيفنى . إذا كانت هناك

حركة هناك مشاكل .

إلى جانب الأعشاب الضارة وعلامات الخيبة والسخرية ـ وهي من السحر الذي علينا دفعه لتحطيم الصور المقولبة المزيفة المفروضة منذ عقود ـ هناك أوجه أخرى نستطيع أن نستمد منها الأمل والتفاؤل : نمو الروح المدنية في المجتمع ، ازدياد وعي الشعب السوفياتي بحقوقه واستعداده للدفاع عنها ، ازدياد النشاط السياسي ، والإدراك والمسؤولية السياسية ، جيل جديد ، متحرر من الخمامات ، قادر على التفكير النقدي والمستقل بأحكامه ، قد وُلد ويمكننا أن نؤمنه على مستقبل البلد .

الأمر الأكثر أهمية هو عدم الاستسلام الآن عند نقطة العبور الأكثر حرجاً ، عدم التوقف ، عدم البحث عن خلاص في الماضي ـ ذلك سيكون الخطأ الأفدح الذي لا يمكن تصحيحه .

سيكون انتحاراً إذا كنا ـ الآن ، كما في الخمسينات والستينات ، سنصاب بالخوف ونقف في منتصف الطريق . عندها سننزلق إلى الوراء .

من الصحيح القول بأن كل شيء يجب أن يكون ناضجاً ، لكن وقتنا بدأ ينفذ . ليست هناك حاجة للذعر أو التشوش . علينا الحفاظ على برودة التفكير وضبط النفس ونمتلك شجاعة . لكننا أيضاً بحاجة لتفكير صافٍ ورد فعل حاسم حيال العمليات المتصارعة . وبالتأكيد ، إيمان بالقضية التي أطلقناها .

لذلك من المهم ألا نفقد القدرة على التحمل ، أن نبقى مخلصين للفكرة الاشتراكية وللتقدم ، برغم الصعوبات والأخطاء ، على طول درب التحولات الديمقراطية الجذرية وخلق ظروف اجتماعية طبيعية . في الوقت نفسه ، علينا أن نتذكر ، أنه في صميم البيريسترويكا تكمن شبكة أمان اجتماعي الأكثر مصداقية . البيريسترويكا ستوفر للناس فرصة العمل والمبادرة ، ستوجد حوافز قوية للعمل الجيد . هنا تكمن الركيزة الرئيسية للحماية الاجتماعية للفرد .

الوضع لا يحتمل التأخير بالقيام بخطوات عملية . كل شيء يجب أن ينجز بتلك الطريقة بحيث تظهر ثمار ما بدأنا به منذ ست سنوات بأسرع وقت ممكن ـ على رفوف المحلات في الشوارع ، في النقل العام ، في الحياة اليومية ،

وأماكن العمل .

نستطيع حتى أن نحقق في المستقبل القريب نتائج أساسية ، ونجمّع الزخم اللازم لتأمين كل الحاجات الملحة للسكان . الحصاد البعيد المدى سيكون أغنى على الأرجح . لكننا متفائلون بأن كل ما فعلناه سيجعل الناس يلمسون جيداً أن طموحاتهم مبررة .

مكائد رايسا لإنقاذ غورباتشوف

الأحد 18 آب/ أغسطس

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً ؛ كنا ، أولغا لانينا إحدى سكرتيرات غورباتشوف الخاصة ، وأنا عائدَيْن للعمل في دارة غورباتشوف بعدما تناولنا وجبة الغداء في المطعم . وكانت سيارتا الشرطة المألوفتان واقفتين أمام مدخل الدّارة وكان هناك حاجز أسلاك شائكة منصوباً وسط الطريق . فتحه الحرس قليلاً للسماح لنا بالمرور .

قرابة الساعة الخامسة ، أحدثت أولغا ضجة في مكتبي « ماذا يجري ، يا آناتولي سرغوفيتش ؟ لقد وصل ڤاليري بولدين[1] ، أوليغ ياكلانوف[2] ، وأوليغ شينين[3] مع جنرال كبير يلبس نظارتين : لا أذكر أنني رأيته أبداً » . نظرت من النافذة واكتشفت رتلاً من سيّارات ذات هوائيّات مرفوعة ؛ حتى أن بعضها كان مجهّزاً بمصابيح إنذار مضيئة ؛ وكان السوّاقون والحرس مجتمعين أمام مدخل المبنى المخصص للمكاتب . ألقيت نظرة من النافذة المطلّة على المساكن الرئاسية : الجنرال يوري بليخانوف (المسؤول عن قسم المخابرات K.G.B ، المكلّف بأمن القادة السوفيات) كان يعبر الممر بوجه مضطرب .

---

(1) الأمين العام لرئاسة الاتحاد السوفياتي .

(2) نائب رئيس مجلس الدفاع .

(3) عضو المكتب السياسي .

قـالت لي أولغـا إننـا لم نعـد قـادرين على إجـراء أي اتصـال . رفعت السماعة ، مرةً ، مرّتين ، ثلاث مرّات ، فلم أسمع شيئاً ، ليس هناك أي صوت حتى على خط القمر الاصطناعي .

وبما أننا رحنا نتساءل عن مغزى هذه الأمور ، قلت ربما يتعلق الأمر بعطل في محطة نووية ـ وهذا ما كان يمكنه تفسير وجود باكلانوف . لكننا لم نتأخر كثيراً في اكتشاف الحقيقة التي كانت أسوأ من كل افتراضاتنا .

شغّلت الإذاعة ، كانت تبثّ برامج عاديّة ، لم يكن هناك أخبار خاصّة . بعد ساعة تقريباً ، خرج الزائرون الأربعة . وخرج بليخانوف أيضاً ، آخذاً معه ڤلاديمير مدڤيديف ، معاون الرئيس ، كانت تلك علامة مثقلة بالمعاني . فحتى عندما ذكرت أنا وألغا إمكانية وقوع حادث نووي ، كنت أحسّ في صميمي أنهم لم يأتوا إلاّ من أجل غورباتشـوف .

ما زلنا منقـطعين عن الاتصال . بعـد عشر دقـائق ، دخل ڤـيارتشسلاف جنرالوڤ مساعد بليخانوڤ في الكي. ج. ب. إلى الغرفة التي كنا فيها . كنا نعرف بعضنا جيّداً لأنه كان مسؤولاً عن أمن غورباتشوف في أثنـاء تنقلاتـه في الخارج . بدا مهذّباً جداً . « هل تتكرمون بالطلب إلى أولغا لكي تتركنا وحدنا لحظة » . ثم جلس وراح يتكلم : « أرجوك يـا آناتـولي سرغـوفيتش أن تحاول فهمي . لقد كلّفت بمسؤولية هذا المكان . تلقيت الأمـر بعدم السمـاح لأحد بالمغادرة . حتى إذا تركتكم تخرجون فإن حرس الحدود سيوقفونكم فوراً ـ هناك ثلاثة أطواق أمنية منتشرة على شكل نصف دائرة من الجانبين . إن الطريق الكبرى من سباستبول إلى يالطا مسدودة ؛ ويمكنكم أن تشاهدوا من هذه النافذة ثلاث سفن حربية تجوب الساحل كلّه » .

طرحت عليه سؤالاً ساذجاً : « وهذا لأجل توقيع الاتحاد ، المقرّر إبرامها في موسكو ؟ » فكان رده : « لن يكون هناك توقيع . فقد أُعيدت الطائـرة التي جاءت لنقل غورباتشوف . أبوابُ المراتب وسيارات الليموزين مختومة وتحت الحراسة ، ليس من قبل رجالي أنا ، بل من قبل جنود وحدات خاصة ، مزوّدين برشاشات ، حتى إنني لا أستطيع السماح بمغادرة العاملين في البيت من جنائنيين

وطبّاخين وخادمات . لا أستطيع أن أفعل شيئاً . افهموني ، أرجوكم ، فأنا عسكري ، أصيغ الأوامر . لا أحد ! لا إتصال ، لا شيء إطلاقاً » .

عندئذٍ غادر الغرفة .

الإثنين 19 آب/ أغسطس

علمنا من الإذاعة أن بلاغاً قد صدر عن قائد موسكو : لقد وقعت الصدامات الأولى في الليل ،الهجوم على الحرس في ساحة سمولنسك ، وفي مبنى السوڤيات الأعلى لجمهورية روسيا وفي فندق .B.C ، وأن هناك قتلى وجرحى . إذن ، لقد سال الدم ، وحمّل القائد المسؤولية للخارجين على القانون والحق العام .

عند الظهر ،

عند مدخل الدّارة ، كان يقف غورباتشوف ورايسا وابنتهما ايروتشكا (المسمّاة إيرينا) ، وأناتولي ، صهرهما . كانوا يمزحون ، بعضهم يشكو من البرد ، وبعضهم الآخر من الحَرّ . كان غورباتشوف يشكو من الحر لأنّه كان يرتدي بذلة سميكة : فقد كان يشكو قبل يومين من وجع في كليتيه ، وهو مرضه المزمن ، لكنّه لم يعد يشكو من ذلك حالياً .

كان الظلام قد حلّ تقريباً عندما جاء للبحث عني رجل لا أعرفه ، هو بوريس غولينكوف الذي حلّ محل مديڤديف . أعلمني بوريس غولينكوف أنّ غورباتشوف يدعوني للقيام ببضع خطوات معه في الخارج ، ارتديت بذلة وخرجت بسرعة ، تساءلت عن الحالة التي يمرّ بها الرئيس ، كيف يرى الأحداث ؟

كان غورباتشوف وزوجته رايسا وابنته إيرينا وصهرهما أناتولي ينتظرون في الروّاق ، كان الرئيس هادئاً ، وكان ثمة ظلٌّ ابتسامة يتموّج على شفتيه . قال لي : « أتعلم ماذا يجري ؟ » .

ــ كلا . كيف لي أن أعلم ؟ لقد رأيت فقط ما يمكن أن أراه من نافذتي .

رأيت بليخانوف ، بولدين ، وجنرالاً كبيراً يلبس نظارتين ويبدو حازماً ورأيت ياكلانوف أيضاً .

ـ قال لي غورباتشوف : « الجنرال الكبير كانْ ڤالنتان فارنيكوف[4] . إنه وصولي منحط ، فهو الأكثر نشاطاً بينهم . والآن ، اسمعني ، يجب أن تعرف كل شيء » . قاطعته رايسا : « لقد جاؤوا دون أن يُعلموا أحداً . وكان بليخانوف يسير على رأس الجماعة ، وكان كل الحرس يفسحون له المجال ، كان ذلك مفاجأة كاملة . لقد ظهروا كصاعقة في سماء زرقاء صافية . كنت متكئة على أريكة ، ومرّوا أمامي كأني لم أكن موجودة . وحده ياكلانوف حيّاني . لم يكلمني بولدين ! مع أننا كنا قريبين جداً ، في خلال الـ 15 سنة الأخيرة . كنا عائلة واحدة تقريباً ؛ فلقد كان يشاركنا في أسرارنا الحميمة جداً » . وتابع غورباتشوف : « لقد جلسنا ، وسألتهم عمّا يريدون . بدأ ياكلانوف بالكلام ، لكنْ ڤارنيكوف قاطعه ، رافعاً صوته كلما حاول أحدهم أن يتكلم . أما شينين فلم يفتح فمه ، حاول بولدين التدخل : « ألا تدرك أننا نعيش في وضع صعب جداً ؟ » فقلت له : « أنتَ ، موداك» (يا أبله) اسكتْ يبدو أنك أتيت لتلقي خطابات أمامي عن وضع البلد » ! . لقد وصفته بالخصيّ أمام السيّدات ! لقد تركوا لي الخيار بين حلّين: إما إعطاء كامل السلطات لجيناي ياناييف نائب الرئيس والموافقة على إنشاء لجنة الدولة للطوارىء التي سيكون رئيسها ؛ وإما أن أسكت تماماً . أي أن أتخلى عن الرئاسة . حتى أنهم حاولوا ابتزازي . لكنني قلت لهم : « لا بد لكم من أن تعلموا أنني لا أقبل أيّاً من هذين الحلّين . إنكم تدبّرون انقلاباً . وإن ما تحاولون القيام به مع « لجنتكم » هو غير دستوري ومناقض للقانون . إنها مغامرة ستنتهي في الدم والحرب الأهلية » . قدّم الجنرال ڤارنيكوف تفسيراتٍ ترمي إلى إقناعي بأنهم سيبذلون قصارى جهدهم لتجنّب وقوع شيء مماثل ، فأجبته : « إنك تعلم ، أيها الجنرال ، أن المجتمع ليس فرقة عسكرية يمكن أن تؤمر « إلى الأمام ، إلى الوراء ! » . إنَّ مخططك سيؤول إلى مأساة فظيعة . أما فكرتكم ـ لجنة دولة للطوارىء ـ فإنني مقتنع إنها مشروع مدمّر . فكل ما بدأتم به سوف يُحطَّم . وهذا الأمر سيعيدنا إلى ما قبل البيريسترويكا . والحال ، ستقومون بخنق كل شيء وإسكات الجميع ،

سترسلون الجيش إلى كل مكان ، ثم ماذا بعد ! لقد فاجأتموني وأنا أكتبُ مقالاً ، وإنني أتناول محاولتكم هذه في مقالتي : محاولة إعلان حالة الطوارىء ، لقد تمعّنت في كل شيء وإنني مقتنع أن هذا الطريق هو طريق مسدود ، وربما يكون طريقاً دموياً . . . وسوف يعيدنا إلى الوراء » . وقال لي غورباتشوف : « ختمت كلامي معلناً أنني لن أتراجع عمّا قلته ، وخرجوا » .

واصلنا السير في العتمة خلال ربع ساعة . قال لي غورباتشوف : « سيعلنون ذلك غداً ، كيف سيفسّرون غيابي ؟ » .

تحادثنا بشأن الجماعة التي نقلت له الإنذار . فلم أستطع منع نفسي من القول : « إن هؤلاء جميعاً هم رجال اصطنعتهم . إنهم يدينون لك بكل ما هم عليه ، فقد جعلتهم يتقدّمون ومنحتهم ثقتك » .

جاوبني الرئيس : « أفضل ألا أقول شيئاً عن حثالة بلخانوف ! فهو ليس كائناً بشرياً ! إنّه يخونني وتعتقد أنّه يقلق على مصير البلد ؟ إنه لا يفكّر بغير جلده البائس ! » .

بعدما سمعت الأخبار من محطة ماياك (المحطة الرئيسة للإذاعة القومية) وفهمت أنّهم شكلوا لجنة دولة للطوارىء ، تساءلت عن الموقف الواجب عليّ اتخاذه تجاه الرئيس ، هل أنتظر حتى يناديني ؟ أم يتعيّن عليّ احترام الرتابة المألوفة ؟ لا ، يجب أن أطمئنه على ولائي وإخلاصي ، كان بحاجة إلى دعم . وبالتالي ذهبتُ لرؤيته دون مزيد من الانتظار . تهت في الدار قليلاً إلى أن شاهدتني حفيدته . فقادتني إلى الطبقة الأولى ، حيث يقيم جدُّها . كان لا يزال في السرير ، بعد جلسة تدليك لظهره . نهض على الفور .

قال لي : «أتعلم يا أناتولي أنني خلال كل الوقت الذي تحدّثت فيه مع هؤلاء القوم ، حرصت على إبقاء وجهي واثقاً . لم أشعر بأي اختلاجة ، كنت هادئاً تماماً ولا أزال كذلك ، أنا مقتنع أنها مغامرة وأنها يمكن أن تتحول إلى مغامرة دموية ، ليحفظنا اللّه من شرّها ، فهم لن يستطيعوا فرض الأمن وإطلاق الاقتصاد وجمع المحاصيل ! إنها مغامرة مجرمة ! » .

في وقت لاحق ، عند السادسة مساءً ، طلب مني الإنضمام إليه . ذهبنا

إلى الشاطىء مع أسرته . كان الكلام مستحيلاً في المنزل ، فقد كان مجهّزاً بأجهزة تنصّت الكترونية . كانت هذه الفكرة تولّد هلعاً لدى رايسا ، وضعت أناستازيا ، آخر الحفيدات ، يدها في يدي وسارت إلى جنبي على طول الطريق المؤدية إلى شاطىء البحر . ولما وصلنا إلى البحر ، قادتنا رايسا ، الرئيس وأنا ، إلى الكوخ القائم عند الشاطىء وطلبت من بقية المجموعة أنْ يذهبوا إلى البحر ، انتزعت بعصبيّة عدّة أوراق بيضاء من دفترها الصغير ، وبحثت عن قلم في محفظتها الصغيرة ولما وجدته ناولتني إياه : « إنني أترككما لوحدكما » . بالطبع، بالطبع ، قال بنفاذ صبر (حركة مزاجية غير مألوفة أبداً في علاقاتهما) . « والآن، إلى العمل » . ابتعدت وهي تودّعني بابتسامة صغيرة وبتحية .

قال لي غورباتشوف : « أناتولي ، يجب القيام بشيء ما . سأسحق هذه الحشرة الطفيليّة (كان يتحدث عن الجنرال جنرالوف ، مبعوث بليخانوف ، المسؤول عن قوى الأمن الذي صار حارسنا) . سأغرقه بالطلبات يومياً ، لن أتركه يرتاح دقيقة واحدة » .

ـ قلت مؤيّداً : أنتَ على حق . أشك في أن يتوصّل انقلابيو موسكو إلى أي مطلب ، لكن لا يجوز تركهم يعتقدون أنك رجل مهزوم .

ـ « اكتبْ ، أمرني غورباتشوف : أولاً أطلب إعادة تشغيل كل أجهزة الاتصال ؛ ثانياً أطلب عودة الطائرة الرئاسية لأعود إلى العمل . وإذا لم يستجيبوا سأطلب منهم أن يرسلوا لي صحافيين سوڤيات وأجانب » .

سجّلت كل ما طلبه مني ، وأوصاني أن أخفي هذه الورقة .

الثلاثة 20 آب/ أغسطس

في الصباح قالت لي أولغا فجأة : « لماذا تقضي ، يا أناتولي سرغوڤيتش ، كل وقتك في مكتبك ؟ فلنذهب ونستحمْ ، بدلاً من ذلك . لن يمنعك الحرس من السباحة . ولن يؤذن لنا بالخروج من دونك » . وهكذا ذهبنا إلى البحر ، أولغا ، لاريسا (ممرضة) ، تاتيانا (مُدلّكة قويّة البنية ورفيعة التهذيب) وأنا .

سرنا على الطريق الملتوية ، فوق أدراج متعرّجة تؤدي إلى الشاطىء . في

منتصف الطريق قالت لي أولغا : « انظروا وراءنا » ! . أدرت رأسي فرأيت رجلاً يتبعنا . أخيراً وصلنا إلى الشاطىء . كان الشاطىء يشبه سيركاً صغيراً معلقاً بين جبلين صغيرين . هناك برج مراقبة على الجهة اليمنى ، وكان فيه جنديّان يراقباننا . وكان هناك أيضاً مركب بمحرّك ، وفي البعيد كانت المحرّكات تهدر ، مستعدة للرسو ، وكان ثمة بارجة راسية على بعد مئة متر عن الشاطىء . لماذا يلاحقوننا هكذا بواسطة حارس ؟ هل من الممكن أن يعتقلني إذا حاولت الفرار إلى تركيا ؟ ربما لا ، فأنا سبّاح ماهر جداً في هذا الخضمّ الكبير . في الواقع ، هدف هذا التدبير واضح : يريدون إشعارنا بأننا غير أحرار ،وأننـاسجناء في هذا المكان ، وأنهم قادرون على ملاحقتنا أنّى ذهبنا ، إنه ضغط نفسي .

بعدما سبحت ، سعيت للالتحاق بغورباتشوف . قالت لي الطاهية : إنّه في مكتبه . خرج منه لموافاتي . وفي الوقت نفسه تقريباً ، خرجت رايسا من غرفة مجاورة ، مشيرة بإصبعها ، وهي صامتة ، إلى المصابيح والسقف والأثاث ، الذي كانت تشتبه به كثيراً ، حيث تختفي فيه أجهزة تنصّت والتقاط . مكثنا لحظةً متّكئين على الشرفة . قلتُ لرايسا : « أترين هذه التلة مع برج المراقبة ؟ تسلّي تقع وراءه تماماً . لقد قضيت عطلات كثيرة في تسلّي ، وغالباً ما كنت أصلُ إلى هناك سباحةً . فكنت أرتاح قليلاً تحت الشمس على الشاطىء ثم أعود أدراجي من حيث أتيت » .

وقفزت من مكانها حين الححت قائلاً : « أتعلمين أنني سبّاح ماهر جداً ؟ أستطيع أن أسبح خمسة وحتى عشرة كيلومترات . ماذا يمكن أن يحدث إذا قمت بهذه المخاطرة » ؟ . ولكن بما أنني كنت أضحك وأنا أتكلم ، لم يتوجّب عليها أخذ كلامي على محمل الجدّ . وعندها قالت لي ، بصوتٍ منفعل وهامس ، إنّ الأسرة كانت قد اجتمعت ، عند الساعة الثالثة صباحاً ، في غرفة داخلية وصوّرت بياناً للرئيس بواسطة كاميرا الفيديو العائدة لأناتولي . وأوضحت لي أنهم سيخرجون الفيلم من الكاميرا ويقتطعون منه الجزء الخاص ببيان الرئيس لكي يمكن إخفاؤه على نحوٍ أسهل . وأضافت موضحة : « سألفُّ الفيلم في علبة صغيرة جداً محكمة الإغلاق ، وسأعطيك إياها . ولكن إياك أن تبقيها معك . فمن الممكن أن يفتّشوك . تدخّل ميخائيل غورباتشوف ، ناصحاً بإخفاء الفيلم

في ملابس داخلية جرى تعليقها على شرفة غرفة أولغا وتوماس ، لتجفيفها .

كانت رايسا متوترة بشكل منظور عندما أعطتني شريط الڤيديو بعد الغداء . كان الفيلم مغلّفاً بورقة محكمة الربط . « لقد أعطينا نسخاً أخرى من هذا البيان لسواك ، ولن نقول لك ، لمن أعطيناها . فهذه النسخة مخصصة لأولغا التي ستقوم بإخراجها من هنا . لكنها قالت لي إن عندها ولداً وأقرباء مرضى ، فهل ستقبل القيام بهذه المهمة ؟ هذا عمل خطير جداً » .

ـ أجبت : ستوافق . فهي امرأة شجاعة جداً ، وتكره هؤلاء القوم .

ـ ردّت رايسا : « أرجوك أن تعلمها بالأمر . وقُلْ لها أن تخفي الشريط في أماكن سرية ـ الصدريّة أو السروال . وأنتَ ، أين ستخفيه قبل أن تعطيها إيّاه ؟ لا تضعه في جيبك . احفظه في يدك واخفهِ في مكانٍ ما ، ولكنْ لا تضعه في الصندوقة . ضعه في الرواق ، تحت سجادة » .

ثم طلب منها الرئيس أنْ تذهب إلى الأولاد. وخرجنا إلى شرفة أخرى لنتكىء على السُّور، وعلى الفور رأينا النواظير المنصوبة فوق برج المراقبة تُدار في اتجاهنا ؛ وكان حرس الحدود، المرابطون فوق الصخور القريبة يسدّدون بنادقهم نحونا . سمعنا صوتاً ، منخفضاً ، يتحدّث عن هاتف محمول : « لقد خرج إلى الشرفة ، والثاني خرج من اليمين » . تبادلنا النظرات ؛ ضحكت قليلاً وأطلقت أفحش شتائم اللغة الروسية . حدّج بي غورباتشوف ، مندهشاً : لم يسبق لي أنْ تصرّفت هكذا في حضرته . اعتذرت منه على الفور ، لأنني قلت لنفسي ربما كان يفكّر : « ها هو الوقت الذي صار يمكنهم فيه أن يهزأوا مني » .

جلسنا في الغرفة . ترك لي مكاناً مشمساً ، وسألته : « ألا يمكنني الجلوس إلى جانبكم ، لأنني لا أحبّ الشمس ، خلافاً لكم ولجورج بوش ؟ تذكرون في نوڤو ـ أوغاريڤو، عندما ظهرت الشمس ، أخذ المكان الذي كنت قد تركته لكي أقف في الظل . . . » . تبسم غورباتشوف : كان اللقاء مع بوش يبدو له اليوم من حوادث تاريخ العصور الخوالي ، أخرج دفتراً صغيراً وراح يملي خطاباً موجهاً للبلاد وللمجتمع الدّولي .

عدت إلى غرفتي ، وراحت أولغا تطبع البيان على « الشرشفسكا » ،

الـورق السميـك المخصص للرسـائـل الـرئـاسيّـة . في المسـاء ، طلبت من غورباتشوف أن يوقّع على النص المطبـوع ويؤرّخه . في رأس الـورقة ، كتب الرئيس أنّه يطلب مِن كل مَنْ يتلقّى هذا النص أنْ ينشره بكل الوسائل المتاحة .

حادثت أولغا عن شريط الڤيديـو ، في وقت متأخـر من المساء ، كـانت مسترخية في مقعد وثير ، وهادئةً تماماً . شغّلتُ جهاز التلفزة ورفعت الصوت إلى حدّه الأقصى . أنحنيت إلى جنب مقعدها وقلت لها : « أولغا ! أريد أن أخبرك خبراً بالغ الأهميّة ، هل تريدين أن تصغي لي جيّداً ؟ انتبهي الأمر بالغ الأهمية ، يمكنك أن ترفضي حتى قبل أن أكلّمك بالأمر .

ــ « أخبـرني يا أنـاتولي سـرغوڤيتش ! يبـدو أنكَ لا تعـرفني ! أخبـرني كل شيء » .

كشفت لها المخطط الخاص بشريط الڤيديو . وشرحت لها أنّ غورباتشوف وأنا سنطلب السماح لها بالذهاب إلى موخالاتكا (مركز اتصال يقع على مسافة 20 كيلومتراً) لكي ترى ولدها الصغير ووالدهـا المصاب بمرض قلبيّ ، ومن هناك ، كنا نأمل أن تتمكن من الاتصال بموسكو أو الذهاب إليها .

ــ موافقة ، لنفترض أنني تمكّنت من الذهاب إلى موسكو . ماذا سأفعل عندما سأكون هناك ؟ من المحتمل أنهم سيقتفون أثرى .

ــ لقد تناقشنـا ، الرئيس وزوجتـه وأنا ، في هـذه الفرضيّة واتفقنا على سيناريو . ربما يكون من الطبيعي جداً أن تذهبي لرؤية زوجتي في موسكـو . سأكتب لها رسالة أقول لها فيها إنني بخير ، وأن لا تقلق ، وإنني سأرجع قريباً وسأروي لها كيف تجري الأمور . وسوف تعطينها الرسالة والشريط » .

الأربعاء 21 آب/ أغسطس

منذ بدء الصباح بدأنا نحاول مضايقة جنرالوف ، وبما أنّه كان قد بقي بارداً كالرّخام ، ذهبنا إلى حد إخضاعه لنوع من الابتزاز ، لافتين انتباهه إلى أننا لن نبقى محبوسين هنا إلى الأبد وأننا سنتهّمه ذات يوم بتعذيب أمٍ شابةٍ حال دونها ودون أسرتها خلال عدة أيام . لكنّه بدا أبرع مني . أرسل مواكبـة لأولغا حتى

موخالاتكا ، ووضع منزلها تحت المراقبة ، ولدى عودتها ، قالت لنا أولغا أنها لم تحظ بإذن التلكم هاتفياً مع زوجتي .

في تلك الليلة ، كانت أولغا قد عدّت 16 بارجة حربية راسية على طول الشاطىء . سألتها عما رأت على الطريق . فقالت إنها كانت مسدودة في وجه السيارات ومملوءة بدوريّات من حرس الحدود .

عندما التحقت في وقت لاحق بالرئيس ورايسا ، بذلت كل ما بوسعي لكي أبدو واثقاً وحتى مرحاً . وبما أنني لم أتمكن من نقل أخبار سارّة ، أردت أن أتظاهر بمعنويّاتٍ حديديّة ، كانت رايسا متوتّرة ، فلم تكن ترتسم أية ابتسامة فوق وجهها القلق ؛ وكانت ابنتها تظهر تصمياً قوياً ونفياً تاماً للخوف . لم تترك فرصة إلا وكانت تشتم فيها أولئك الذين « دبّروا هذا الأمر » . وعندما خرجت رايسا ، راحت تمطرني مجدداً بوابل من التعليمات البالغة الدقّة : عليّ أنْ أخفي بكل عناية النص المطبوع على الآلة الكاتبة وأن أبذل كل جهدي للحؤول دون أي تفتيش . كان يبدو لي هذا الهلع الشديد كأنه ثمرة توتّر عصبيّ حاد . . . أما أنا فكنت منذ أيام الحرب أتحمل مشاعر الخطر الجسدي التي كانت قد انطفأت فيَّ إلى حدٍ ما .

في السهرة ، أعطوني كتابها الذي كان قد أرسلوا لها يوم 17 آب/ أغسطس طبعته الأولى . قالت لي رايسا : « آمل أن تتمكنٍ من قراءته بسرعة هذا المساء . . . » . فقرأته وامتدحته . فكان هذا الأمر مدعاةً لفرحها الشديد . . . وأما غورباتشوف الذي كان حاضراً ، فقد تأثر أيضاً ، وأصبحت عيناه مغرورقتين بالدّمع ، طمأنتها وأنا أقول لها إن الكتاب سينفذ بسرعة في العالم بأسره ، وفي بلادنا . . . كانت رايسا تشكّ بإمكان صدور الكتاب في الظروف الراهنة . قلت لها باقتناع : « لن يتمكنوا من خنق صوتكم ، مهما حصل » .

كانا يستقبلانني بأمل ظاهر ، ويسألانني إذا كنت لا أحمل بعض الأخبار الطيّبة ، وبشكل خاص يسألانني عما كانت تقول الإذاعة وعما كنت أتوقع حدوثه في الغد وفي الأيام القادمة . أجبتهما بصوت واثق ، صارم ، وهذه لم تكن طريقتي المألوفة ، كانت رايسا كل الوقت شديدة التوتّر ولم تحاول ولو مرة واحدة

أن تبتسم . في المقابل ، كانت إبنتها إيرينا مفعمة بالعزم والتصميم ، وخالية من كل خوف ، ربما كانت تحتفظ بملاحظات ثمينة وبأغراض تتمسّك بها مثلما تحافظ على بؤبؤ عينيها . وفوق كل شيء كانت تخشى الخضوع لتفتيش جسدي . وكانت تخشى الشيء نفسه بالنسبة إلى زوجها الذي سيتأثر تأثراً عميقاً من جرّاء ذلك في حال حدوثه .

كانت أعصابها باردة باستمرار ، عند الساعة الثالثة بعد الظهر ، سمعنا التلفزيون يعلن : يلتسين موجود في مبني البرلمان الروسي ، ولقد تقرّر أنْ يذهب الكسندر روتسكوي (نائب الرئيس الروسيّ) وإيفان سيلايف (الوزير الروسي الأول) ونوّاب آخرون إلى الكريميا . وكان ڤاديم ياكاتين (وزير الداخلية السابق ، والمسؤول الجديد الـ كي . جي . بي) وايفغيني پريماكوف (المستشار الرئاسي) قد وضعوا نصاً رسمياً . وبصفتهم أعضاء في المجلس الأمني ، أعلنوا أن لجنة الدولة للطوارىء غير شرعيّة وغير دستوريّة ، وكل قرارتها أيضاً . وأعلنوا من جهة ثانية ، أن غورباتشوف كان في صحة جيّدة ولكنّه معتقل ، لا بد من إعادته إلى موسكو مهما كلّف الأمر ، كانوا في وضع من اللاشرعيّة التامّة ، ثم كان البرلمان قد وقف دقيقة صمت تكريماً لذكرى أولئك الذين سقطوا قتلى في الليلة الماضية أمام « البيت الأبيض » .

عند الساعة الخامسة بعد الظهر ، ظهرت أولغا ولاريسا وتاتيانا في الغرفة التي كنتُ أعمل فيها . كنّ شديدات التوتر . « تعالوا انظروا ! هناك شيء ما يجري » . تراكضن نحو الشرفة . كان هناك سيارات ليموزين زيل تتقدّم داخل المزرعة ، وكان الحرس يتوجّهون نحوها ، وأسلحتهم مصوّبة . صرخوا : « قف ! » فتوقفت السيارات . خرج منها سائق وشخص آخر . بعد مفاوضات قصيرة ، استدارت السيارات يساراً وتوجهت نحو المبنى الذي يقع مكتبي فيه . خرجت من غرفتي الواقعة في الطبقة الثانية ، مرتدي قميصاً خفيفاً وبنطلون بيجاما ، خطرت فكرة على بالي : إنني أشبه سجيناً .

بعدما عبروا الأبواب ، ظهروا وراء بعضهم على التوالي : أناتولي لوكيانوف (رئيس مجلس السوڤيات الأعلى) ڤلاديمير ايڤاشكو (نائب ممثل

للحزب الشيوعي) ، ياكلانوف ، ديمتري يازوف (وزير الدفاع) وفلاديمير كريوتشكوف (رئيس الكي . جي . بي) . كانت سحنتهم مهزومة ووجهم حزيناً ، حيّوني جميعهم وهم ينحنون قليلاً ! فهمت على الفور أنهم جاؤوا طالبين صفح الرئيس . بقيت متسمّراً في مكاني ! كان يجتاحني غضب بارد . قبل أن يختفوا كلهم عبر الباب الشمالي ، كنت قد أدرتُ لهم ظهري .

ارتديت ملابسي فوراً وانضممت إلى الرئيس . كنتُ أخشى في المقام الأول أنْ يكون قد وافق على استقبالهم . في رأيي كان هذا آخر شيء ينبغي القيام به ، خصوصاً منذ إعلان التلفزيون أن وفداً من البرلمان الروسي كان في طريقه إلينا . كان غورباتشوف جالساً وراء مكتبه ويصدر أوامر هاتفياً . رفع رأسه وأبلغني أنّه فرض شروطه على المتآمرين التائبين : لن يقبل التحدّث إليهم طالما أنّ الاتصالات لا تزال مقطوعة . ولكن الآن طالما أن المندوبين القادمين من البرلمان الروسي سيصلون فإنه ، بكل تأكيد ، لن يستقبل المتآمرين . أمر أمامي قائد حامية الكرملين أن يتولى مراقبة المبنى وألاّ يترك الانقلابيين يدخلونه لأي سبب كان ، ثم تحدّث هاتفياً مع الرئيس بوش . كانت مكالمة حارّة جداً . كان غورباتشوف يشكر الرئيس الأميركي على دعمه وتضامنه . وكان بوش مرتاحاً لإطلاق سراحه وعودته إلى مركزه .

أعلن بوريس غولينكوف عن وصول الوفد البرلماني الروسي . قال الرئيس : « ادخلوهم فوراً » . بعد عدّة دقائق ، انضممنا إليهم في قاعة الطعام ، سأظل كل حياتي أتذكّر المشهد الذي شاهدته فيها . هرول سيلايف وروستكوي نحو الرئيس وعانقاه . كان كل منهم يتكلم بانفعال ، مقاطعاً كلام جاره ؛ وكان الصّخب قد عمّ القاعة ، مع صوت تعجّبي قوي كان في بعض الأحيان يرتفع فجأة ! كما كان حاضراً باكاتين وبريماكوف ، قبل الانقلاب ، كان هؤلاء الرجال ينتقدون غورباتشوف في البرلمان أو في الصحافة كلما سنحت الفرصة ، محتّجين ، معبّرين عن استيائهم بشدة .

لكنّ المأساة أثبتت أنّهم رجالٌ كانت البلاد في حاجة تامّة إليهم .

جلس الجميع إلى المائدة لكي يتبادلوا المعلومات حول ما جرى في

موسكو وهنا ، وكانت المفاجأة الكبرى أنهم ما كانوا يعلمون أنهم قد جاؤوا لنقل الإنذار إلى الرئيس ، وما كانوا يدرون مضمونه .

كانت التاسعة مساءً عندما قال روتسكوي ـ وهو رجل شاب ، جميل وقوي المظهر كصخرة ـ : « حان الوقت لكي نتحدّث فيما يتعيّن علينا القيام به . لن نترككم تعودون على متن الطائرة الرئاسية التي نقلت الانقلابيّين » . (فهم لم يكونوا يعرفون أن الانقلاب قد فشل تماماً ، فرأوا أن من الخطر انتقال غورباتشوف في الطائرة الرئاسية التي يسهل اكتشافها) .

تابع روتسكوي : « سنصعد إلى طائرتنا . فهي تقف في مدرج طائرتكم ، لكنها بعيدة عنها قليلاً . إنها محروسة جيّداً ، لأنني اصطحبت معي 40 ضابطاً كبيراً ، مسلّحين تماماً . . . » .

عندما وصلنا إلى المدرج ، تظاهر غورباتشوف بالخروج من السيارة كأنه سيصعد إلى الطائرة التي كانت تنتظره ، ثم عاد إلى السيارة التي أقلعت بسرعة نحو طائرة روتسكوي ، الواقفة على بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات . وعندما خرج غورباتشوف من السيّارة وهو يرتدي قميص عطلة رقيقاً ، وجد نفسه في حراسة ضبّاط مخلصين ، جاهزين لإطلاق النّار عند أول بادرة . انتظروا حتى غاب غورباتشوف في الطائرة ، وبينما كنت أنظر إلى هذا المشهد ، قلتُ لنفسي إنّ الإحساس بالشّرف ما زال ماثلاً في جيشنا . في الطائرة ، جلس الرئيس وعائلته في جناح صغير دعوني للإنضمام إليهم فيه . وشعرنا كلنا بالارتياح لدرجة أن الضحكات كانت تتعالىٰ من كل الجهات .

شربنا نخب المستقبل القريب . وفي هذه المناسبة قال غورباتشوف للمرة الأولى هذه العبارة التي ستصبح شهيرة : « إننا نطير نحو عصْرٍ جديد » .

فهرست

MIKHAIL
GORBACHEV

THE AUGUST COUP

The Truth and the Lessons

Translated by
Fouad HOTAIT

EDITIONS 2000
Paris